



الفصل الثاني

البُعد الفكري

النظام العالمي

سؤال: كيف ينبغي تفسير مشكلات النظام العالمي ومواجهتها؟

الجواب: كلُّ يتناول هذه المسألة وقيمتها في ضوء رؤيته ووفق تفسيرات شتى؛ وهذا أمر طَبَعِيٌّ جدًّا؛ فتجد أنّ من ذاقوا ويلات الشيوعية قد يرتضون الشوفينية طريقًا للخلاص فيتوجهون إليها؛ فمعظم الشعوب في آسيا مثلًا تتجه اليوم إلى تاريخها القديم، وإلى قيمها وأخلاقها الخاصة بها؛ وبهذا أمكن تقييم ما استجدَّ اليوم من تعيُّرٍ لدى الروس والأوزبك والأذريين...

وثمة تعيُّرات مختلفة بالمعنى نفسه تحدث اليوم في أماكن أخرى من العالم؛ وهي "تعَيُّرات" و"تكوُّنات" طَبَعِيَّة طالما أنها لم تضرَّ بغيرها؛ وإذا عُثِرَ على السبل والأساليب التي تجعلها أكثر نفعًا وفائدة فهذا يضمن ألا يُسْقَطَ في أيدي البشرية لاحقًا.

إن بعض تلك التعيُّرات تتمحور حول الدين؛ ونرى لهذا الضرب من التعيُّرات فعالياتٍ منظمَّةً أو متفرقةً في عدة أماكن في العالم، وهذا ليس كغيره؛ إذ إنَّه يُنظَرُ هنا في كل مسألة إلى أن "الدين هو الأساس"؛ ولهؤلاء رغبةً طبعًا باستغلال اضطراب كهذا في تحقيق رؤيتهم، ووضع الناس في الموضع الذي يقتضيه الدين؛

ومن الطَّبْعِيّ في مصالح القوى التي احتلّت العالم عدة مرات حتى الآن أن تسعى للاستفادة من مرحلة إعادة الهيكلة هذه.

فهل هناك توافق تامّ بين تلك القوى؟ كلاً، ألبتة؛ غير أن هناك قناعة سائدة بأنهم يسعون من أجل التفاهم والاتفاق والاتحاد فيما بينهم ما أمكن؛ ومعلومٌ أن رؤية إنجلترا لهذا الموضوع لا تختلف عن أمريكا. نعم، ربما اختلفت آراؤهم قليلاً في "سرايفو" غير أنهم على حُطى أمريكا ماضون... وقد يبدو أحياناً أن لفرنسا آراءً مختلفة، ومردُّ هذا عجزها عن تحصيل حصّتها كما تتمنى في عملية إعادة الهيكلة والتكتل الجديد، ولا شك أن هناك محرومين آخرين ينزعجون الآن...

وثمة دول لا يُدرى أهي منزعة من الوضع الحالي أم لا؟ وفهمٌ موقفها متعذّر تقريباً كما الأمراض التي يصعب اكتشافها وتشخيصها؛ علاوةً على أنهم لا يرغبون أيضاً في محاصّة الغنيمة العامة، ولا يتضح ما الذي يريدونه الآن؛ إنهم يتمنون "السلم في العالم أجمع"... يتمنون لو أن العالم أجمع يعيش في أمن وسلام، والواقع يُظهر أن الأمر ليس كذلك.

هذا ولكلّ مجتمعٍ تغيّرٌ داخليّ ينتظره؛ وبدهيٌّ أن توقيت ظهور أمل كهذا يختلف من دولة إلى أخرى، ولا شك أنه سيختلف؛ لكن يتعدّر تناول كل دولة وتحليلها على حدة، فلنذكر بعض مطامح مجتمعنا فحسب: إن مجتمعنا يَقِظُ، فَطِنٌ، ذكيّ، ويوماً ما سيبتني التغيير الأنسب لماهيته مصعباً إلى صوت ضميره وحدثه، وسيحقّق

هذا التغيير، وقد نتج عن شعور أهل بلدنا بموقف كهذا اختلافات فكرية، وأرجو أن يكون أربابها جميعاً مخلصين فيما يقولون ويفعلون ولمصلحة الدولة يعملون، ولنسلم بأن هذا القدر من الاختلاف في الرؤى والتصورات طبعي جداً، بل له وجه مفيد.

هذه نظرة عامة، وهلم - إن شئت - إلى ملاحظة فنية يسيرة في هذه المسألة: يستحيل إقامة عالم بالمستوى المنشود بالحرب والضرب وسفك الدماء، ولو حدث لاستحال أن يحظى بالقبول، ولم يغيّر هذه النتيجة إلباس عمليات العدا والاحتلال التي وقعت بالأمس لباساً آخر مموّهاً تمويتها لا ينطلي على أحد اليوم. أجل، لقد غدا "الصليب" المعتدي الوحيد بالأمس رفيق "الهلال" اليوم، وما زال الأمر هكذا؛ وهذه الفعال القبيحة المرائية ستنال نصيبها من خلال ردود الفعل والاعتراض على كل ما هو سيء، فمن المفيد أن نكرّر بشكل واضح قاطع أنّ كل نظام يُقام باستخدام القوة الغاشمة سرعان ما ينهار، وأول من سيرزح تحت أنقاضه صانعه.

ولعلّ أبرز مثال على ذلك كوريا وفيتنام والخليج والصومال؛ لكنّ نماذج ردود الفعل القادمة ستكون أشدّ من هذا؛ إذ إنّ ما في قاعدة العالم الإسلامي اليوم من تعاطف مع العوالم الأخرى بدأ يتلاشى وتحلّ الكراهية محلّه، وستستمرّ تلك الكراهية على أشدها ما لم يغيّر الطرف الآخر سلوكه السلبيّ؛ ودول "الطرف الآخر" كما نسميها تدرك هذا في الواقع؛ لذا فإنهم رغم كلّ شيء قد يعرضون مشاهد تُعدّ عندهم نوعاً من التنازل، فلنقل بصراحة - لا سيما

بعد موقفنا الأخير من إسرائيل-: إننا مُنينا أيضًا بنصينا الوافر من الكراهية، وربما تزلزلت تلك الثقة والمودة التي كنا نحظى بها لدى شعوب العالم الإسلامي وإن لم تكن موجودةً لدى حكامه؛ لذا من المتوقع أن يزداد موقفنا صعوبةً، ولن نستطيع أن نجذب مرةً أخرى ذلك العالم المُستاء حتى نكوّن الطاقة الهوائية الأكثر جذبًا وقوةً.

وفي المثل "الجزء من جنس العمل"، ومن بنى على أنقاض ما هدم غارَ به وتحطّم؛ واليوم لو تأملنا ما حولنا في ضوء قضية تكرر الأحداث التاريخية لبدى لنا ما ينتظرنا في المستقبل أكثر وضوحًا.

أجل، إن العالم في طور إعادة الهيكلة حتى وإن لم يكن كما يصوّرونه اليوم، سيتحقق هذا بلا ريب حين يحين وقته، غير أن مَنْ سيضطلع بتحقيقه ليس من يقف على خشبة المسرح الآن بل من هم خلف الستار يرتقبون نضج الأحداث، هؤلاء هم من سينشئون عالمًا في مناخ من التسامح والرفقة والمودة، بدلًا من عالم منصرم بالحقد والبغض... وفي هذا الطور من إعادة الهيكلة ستقبل الإنسانية راغبةً مُحبّدةً رؤيتهم.

فإن أصحاب العمل والجهد الذين رفعَهُم الضمير المجتمعي العام على عرش القلوب بانسراح وسرور سيخلفون آثارًا باقية، وستخلد آثارهم على مر العصور والأزمان ولو صاروا رُفَاتًا، إنني على يقين أن ما ينبغي القيام به اليوم هو هذا الضرب من الخدمة، وعلى قناعة تامة بأن أحلام المستقبل الربيعية العطرة لن تتحقق إلا في ظلّ مثل تلك الجهود والأنشطة؛ لذا أوصي إخواني وأصحابي

المقربين أن ينهضوا بأعمالٍ وأنشطة مفيدة خالدة، لا بجهودٍ موسمية يسيرة مؤقتة لا تعدُّ بمستقبل، بل إنني لن أتوانى عن تكرار النصائح نفسها ما دام فيَّ عِرْقٌ ينبض.

نضحات البعث في العالم

سؤال: في ضوء التطورات الراهنة كيف ترون عمليات الإحياء للقيم الأخلاقية والروحية؟^(٢٢)

الجواب: للمسألة وجهان: أحدهما خاصٌّ بنا، والآخر لا طاقة لنا به، فمن الوجه الأول نقول: لا بدّ من تنفيذ هذا الأمر لله استجابةً لأمره فحسب، وإذا لم يكن ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعلاء كلمته وراء ما يقصّ مضجعنا ويذهب بمهنتنا ويحول بيننا وبين اللذات ويرهقنا ذهنيًّا وجسديًّا، فإنه يذهب سُدى. أجل، إن إخلاص النية هو روح كلِّ عملٍ فعلناه أو سنفعله، فإن غابت هذه الروح لم تعد لأعمالنا أية قيمة إيجابية ألبتة.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٢٤/٨). أجل، إنها مسألة إحياء، ومسألة بعثٍ وانبعث، ويمكن أن يتجلّى هذا الانبعث من خلال الدين بأن يغدو روحًا للحياة كما نصّت الآية.

(٢٢) جمع هذا السؤال من حديث جرى في شهر يونيو عام (١٩٩٤م).

ولا ينبغي أن نخلط رغباتنا وتطلعاتنا الخاصة بما نضطلع به من أعمالٍ يُبتغى بها رضوان الله أي نيلُ مرتبة الرضا التي هي أعظم المراتب: فمثلاً قد نرى أن حقيقة دخول الكافرين جهنم تؤدي إلى اكتئابٍ جزئيٍّ لدى بعضٍ من ذوي النفوس الحساسة؛ وهذا خللٌ في الموازين، وهكذا الحدود الشرعية قد نضيق نطاقها بدعوى القضاء على البغاء الممقوت بل قد نفكر في تقييد بعض الحلال، وكلّ هذا يُخلُّ بالتوازن؛ فالذي لنا وعلينا هو تنفيذ ما أمرنا به في حدود ما نُؤمر ونُكلّف به فحسب.

أمّا ما لا طاقة لنا به فهو هداية الناس جميعاً لرسالتنا، إنه أمرٌ يفوق قدرتنا، بل ليس من شأننا، فهدايتهم أو عدم هدايتهم موكولٌ إلى الله ﷻ، إن حظيت أحاديثنا بالقبول علينا أن نعرف ونعتقد أنه لا يد لنا في ذلك قطّ، فهو ليس ثمرة ذكائنا ولا معرفتنا ولا مهارتنا، وإنما هو لطفٌ ربانيّ، أمّا إن لم نحظّ بحسن القبول فلنراجع أنفسنا ونحاسبها، لنمحصّ مشاعرنا ونياتنا وعباداتنا؛ لنراقب أنفسنا ونحاسبها دائماً، ولا نياس ألبتة، فكم من قاماتٍ باسقة وعمالقة في الفكر والمنطق لم يتبعهم إلا بضعة أشخاص قلائل، وكم من أهل الإلهام والواردات عبروا من هذه الدنيا ورحلوا عنها ولم يتبعهم إلا قليل أو لم يتبعهم أحد؛ فالإيمانُ نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب العبد، فتوير القلب بذلك النور أمرُهُ إليه وحده سبحانه، فهو وحده منورٌ النور.

ثم إن هذه الخدمة خاصّة برسول الله ﷺ ابتداءً، ثم حملها فردٌ ذو قوة قدسية، وارثٌ للمنهج المحمدي في القرن العشرين، الكتاب والسنة مصدره، والحكمة مسلكه، بنى حياته على ذلك ليمثّل الحقيقة الأحمدية، ثم سار بعناية الله تعالى في هذا الطريق، ولم ينسب إلى نفسه شيئاً، بل لطالما كان يُحاسب نفسه قائلاً: "يا نفسي المرآة! لا تغتري قائلةً: إنني خدمت الدين؛ فإن الحديث الشريف صريح "إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"^(٢٣)، فعليك أن تُعَدِّي نفسك ذلك الرجل الفاجر، لأنك لستِ مزكّاةً^(٢٤)، وأمضى عمره يحاسب نفسه ويراقبها ويقول لها: "لا تَرِي نَفْسَكَ مَظْهَرًا لتلك المحاسن وتلك الطيبات؛ فيا نفسي لا تقولي إنني مَظْهَرُ الجمال؛ فالذي يحوز الجمال يكون جميلًا، كلا إنك لم تتمثلي الجمال تمثلاً تامًّا؛ فلن تكوني مَظْهَرًا له بل مَمْرًا فحسب"^(٢٥).

وجاءت الأجيال اللاحقة فألقتْ أنفسها في ربيع هذه الخدمة الجميلة، وباتت تنتظر قائلةً: تُرى هل يكلفنا المولى بشيء أيضًا؟ فإذا بالحق تعالى يستعمل عباده مرّةً أخرى في أمره، فإنّ ما نراه اليوم ما تحقق إلا بمحض عنايته ولطفه سبحانه، ويمكن أن يقال: إنها ثمرات قد تُفوق سعي الأقطاب، وجهد المقرّبين، ومساعي الأبرار.

إذا الحقُّ تجلّى يسّر الأمر
وسبب الأسباب وأجزل الأجر

(٢٣) صحيح البخاري، الجهاد، ١٨٢، القدر، ٤٥، صحيح مسلم، الإيمان، ١٧٨.

(٢٤) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، الخاتمة، ص ٥٤٣.

(٢٥) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الثامنة عشرة، المقام الأول، الملاحظة، ص ٢٤٨.

ولا يُتوقع مثل هذا الأمر من أناسٍ بعضُهُم عليلُ المزاج، كُتِبَ لهم أن يسيروا في هذا الطريق الذي نَسأَمُه أحياناً ونهَمُّمٌ بالهروب والفرار منه، ثم ندركُ تفرُّقَ غيره من السبلِ وضلالها فنعودُ إليه ثانية؛ ولو تنزَّلتْ نفحاتُ التشريفِ والإحسانِ بإخلاصِ قومٍ وجَدَّهم لِمَا يظطلعون به من أعمالٍ، فبدهيُّ أن الله تعالى هو مَنْ فَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ؛ فعلى المرءِ ألا يعكِّرَ هذا العملَ بتشوِّفاته المستقبليةِ وأوهامه وغيرها من خواطرٍ مختلفةٍ، وألا يُفسدَ بسَيِّئِ رغباته كثيراً من ثمارِ جَنِّيه، فإن صفا العملِ ولم يُدنَسْ فقد تُحَقِّقْ لنا النجاةَ في الآخرةِ أنواعَ العنايةِ واللطفِ التي ما زالت تُمطرنا زحاً زحاً، ونبعُ اليمينِ والبركةِ والخيرِ هذا من شأنه أن يسدَّ حاجاتِ الأجيالِ القادمةِ المعنويةِ والأخرويةِ، فإن دنسناه تعذرتِ الاستفادةُ منه حالاً ومآلاً.

ينبغي أن نُعنى بهذا، وأن نراقبَ أنفسنا ونحاسبها، نفعل هذا ولا نفتأ نراقبَ أنفسنا، ومن شأنِ سحائبِ اللطفِ التي تنزلُ علينا زحاً زحاً أن تُحرِّكَ وتُوقِظَ شعورنا بالعبوديةِ أكثرَ مما نحن عليه الآن، فتتعمقُ عبادتنا أكثرَ فأكثرَ، وتغدو سجداتنا باباً للوصالِ بربِّ العالمين لا نبرحه أبداً؛ فبالشكرِ تدومُ النعمُ وتزدادُ، أمّا إن كنا نهذَّ صلواتنا هذاً، وتجرفنا فلتاتِ مشاعرنا الشهوانيةِ، ولا همَّ لنا إلا الأجوفان، فهذا -نسألُ اللهَ السلامة- يعكِّرُ صفو الخدمةِ في سبيلِ الله.

التاريخ في دورانٍ دائمٍ

سؤال: إذا كان التاريخ يعيد نفسه فما نمط الصورة البارزة للعيان عند تأمل الأحداث الجارية في العالم؟

الجواب: يمرّ العالمُ كَرَّةً أُخرى في شبكةِ أزماتٍ معنوية. أجل، إن الله يُزلزل العالمَ مرَّةً أُخرى؛ وكما أنّ لأمريكا وألمانيا أكثر البلاد رفاهيَّةً واستقرارًا نصبيًا من ذاك الزلزال، كذلك الدول الأخرى على التسلسل وفقًا لأحوالها ومواقفها، وكذا تركيا أيًا كان نصيبها.

وسقوط العالم مرَّةً أُخرى في الأزمات إن هو إلَّا نتيجةٌ، ما أكثر أسبابها! بل يتعذر إحصاؤها، ومنها:

١- نقص جوانب في القيادة لدى حكام العالم، ومقصودنا بمصطلح "قائد" مذكورٌ في مقالة "القائد"^(٢٦)؛ فللقائد سمات وخصائص ضرورية، وعند تأمل المعايير المذكورة في هذا المقال يتبين كم يعاني العالم من الفقر إلى القائد والحرمان منه؛ وهذا أمرٌ مستشرٍ مرعب لا يجوز الاستخفاف به في هذه الأزمة والضيق العالميّ المُطبّق.

(2٤) Fethullah Gülen, Çağ ve Nesil-4, Zamann Altın Dili, Lider, Nil Publishing, 2012- Istanbul, p. 213-216

(لما يترجم بعد).

٢- إدارة اقتصاد العالم من قبل الجهلة للحياة الاقتصادية هي سوء طالع يُنذر البشرية، فالإنسانية تتلوّى الآن من هذا النحس، ويا عجبًا لخطأ يعرفه الناس جميعًا اليوم ويكتب له البقاء مدةً أخرى رغم كلِّ شيء!

٣- الإسراف من أهمّ الأسباب في رأيي. أجل، إنه يسيطر على الدنيا بأسرها اليوم، وحيث يطغى الإسراف فمن المحقق والمقدّر طبعًا أن تُفتقد مقوماتٍ مهمّة، وفقدُها يزجُّ بالدنيا في أتونِ أزمةٍ فأخرى؛ لقد كان عيش الناس قديمًا الكفاف، وهذا معيار كلِّ شيء عندهم، سواءً في ذلك الغذاء الذي يشترتون أو الملابس التي يرتدون أو الأمتعة التي يستخدمون، ومنتهى آمالهم أن يكونوا أثرياء بمشاعرهم وأفكارهم وثقافتهم؛ فانقلبت المسألة اليوم رأسًا على عقب.

ومعنى الإسراف الجهل بقدر نعم الله وقيمتها، وتبذيرها وتبديدها؛ فظهور الإسراف في مكان يجلب "القحط" معه، وربما يظهر هذا في صورة انقطاع البركة، ولما تطرّق لهذه المسألة الأستاذ بديع الزمان عنيّ بالمسألة نفسها فقال: "الاقتصاد سبب البركة، أما الإسراف فهو ذريعة لانقطاعها"^(٢٧).

ويمكن سرد أسباب كثيرة للأزمة، غير أننا لن نقف عندها كثيرًا لنتناول الموضوع من زاويةٍ أخرى. أجل، زجَّ بالدنيا كَرَّةً أخرى

في هوة أزمةٍ روحيةٍ، والتاريخ يعيد نفسه، فالأنفع تناول المسألة في ضوء فقهننا لمعنى قولهم "التاريخ يعيد نفسه":

أجل، التاريخ مليء بالأحداث المتكررة، لكنها لا تتكرر بعينها بل بمثلها وشبهها، ولو كان الأمر خلاف ذلك لأتعتظ بالحوادث نفسها، ولم تتكرر الأخطاء نفسها، فتكرر التاريخ تؤخذ منه العبر، وإن شئت فانظروا من منظور كهذا إلى الأزمة التي يعاني منها العالم الآن.

ولطالما لوحظ في الأحداث التاريخية المتكررة أن شدة الحق تعالى على الناس وتضييقه عليهم كان مفتاح الانفتاح نحو آفاق جديدة فيها مصلحة الإنسانية غالبًا، وهذا على مستوى الفرد والجماعة، أي إن بلوغ الأزمات الشخصية الذروة ينذر بأن الأزمة أوشكت تنفجر؛ ولطالما شحذت الأزمات الاجتماعية المجتمع ووجهته نحو آفاق جديدة، ويحضرني هنا كلام جميل يُعزى إلى النبي ﷺ: "اَشْتَدِّي أَرْمَةٌ تَنْفَرِجِي" (٢٨).

وبين الفرد والمجتمع تشابهُ يكاد يغدو تطابقًا، فلنبدأ بالفرد لئتمكّن المقارنة: إن حالات الانسباط الشخصي قد تتبعها انقباضات وجدانية وروحية، وقد يتغير الحال وينعكس؛ ومردّ أحوال القبض أحيانًا إلى بعض الذنوب والغفلة، فيسرح الإنسان في مناخ من الفرح ويمضي حياته في اللهو، ثم تصيبه حالة من القبض عقابًا على ذلك الفعل؛ ويبدو أن الروح تستجدي حالةً كهذه، إذ زيادة الراحة

والاسترخاء تُحدث أزمةً في الروح؛ فهي كثيرًا ما تنزعج من الأفراح الماديّة، وترغب في العيش في شدِّ معنويّ نحو الآخرة.

إن يد القدرة بتعريضها الإنسان لحالة القبض تُوقظه من فتوره ودَعَتِهِ، وإنما ينزل الله تعالى بالإنسان هذه الحالة ليردّه إليه سبحانه، وهذا كالأمّ تضرب طفلها ضربًا خفيفًا لتمنعه من الخطيئة، ثم تضمّه إلى صدرها.

وفي موقف كهذا تضيق السبل وتوصد الأبواب، وتتلاشى الأسباب واحدًا تلو الآخر، فيُعْرِض عنها الإنسان ويُوَجِّه وجهه نحو مسبِّب الأسباب سبحانه، فمقصد الحقِّ سبحانه في الحقيقة ردُّ الإنسان إليه؛ فلو أدرك الإنسان السبب الحقيقي لما حلَّ به من ابتلاء، ورجع من فوره إلى الحقِّ ﷻ لتحققت له الغاية من الابتلاء؛ ويتطلب بلوغ هذه النقطة شعورًا وفهمًا وإدراكًا بأنه لا يحدث أمرٌ في الكون كَلِّه إلا بتدبير الله لا صدفةً فيه ولا جزاف، وقد أشار الأستاذ بديع الزمان إلى هذه المسألة في الكلمة الثامنة من كتابه "الكلمات" عند حديثه عن قصة شخصين سقطا في بئرٍ فأيا فيها أشياء غريبةً، فأحدهما محروم من البصيرة والنظر فيما وراء ستار الوقائع والأحداث، وأما الآخر فمن أهل البصيرة والدراية، فراح يحدث نفسه في ضوء هذا قائلاً:

"هذه الأمور لا تُشبه الصدفة أبدًا، بينما كنت أجري في الصحراء كان هناك أسد يتبعني، فإذا بي أسقط في البئر وأستمسك بغصن إحدى الأشجار؛ وأرى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود، يقرضان

الشجرة من جذرها، وتَيَّنًا فاغراً فاه في الأسفل يترقب لحظة سقوطي، وأسدًا في الأعلى يهددني بشكله المرعب، يستحيل أن يكون هناك من تعرض لمثل هذه الحوادث في آنٍ واحدٍ، واضح أن ثمة أحداً يعرفني خطط لكل هذه الأمور من قبل، لكي تحدث معي الآن" (٢٩).

وهكذا ينبغي أن يفكر كلُّ من عرضت له حالة القبض، ويقول: "هذه الحوادث التي تُحكَم عليّ قبضتها تُنزلها بي قوّة تفوقني، وما أنا إلا شخصيّة ثانويّة في هذه المسرحيّة"؛ ولا يكتفي بهذا فحسب، بل يتوجّه من فوره إلى من يسوق الحوادث إلى تلك الجهة، ويمسك بزمام عالم الخلق كلّ في قبضته ﷻ.

هذا حال الفرد، ومثله المجتمعات، فالمجتمع كالفرد، يُمسك أحياناً بمخلبٍ من حديدٍ ويُشدُّ عليه، وتلك هي حالة انقباض المجتمع؛ والواقع أن نصيبنا من هذه الحالة بدأ ونحن على مشارف القرن التاسع عشر، إذ تتابعت الخسائر والإفلاس، خاصةً بعد "التنظيمات" (٣٠) فقد خسرنّا في مواقف هي أدعى للكسب، وطالت حالة القبض هذه لأننا عجزنا أن نرجع ونتوجه إليه سبحانه، فطرقتنا الأبواب الخطأ، وابتغينا المدد والعون من غير مظانّه، فمثلاً ساد الولع بالفرنسيين زمنًا، وبالإنجليز زمنًا آخر؛ حتى إن عبارة "الدولة

(٢٩) انظر: بديع الزمان سعيد النوربدي: الكلمات، ص ٣١-٣٢.

(٣٠) يطلق مصطلح "التنظيمات" على مجموعة الإصلاحات التي أدخلها السلطان عبد المجيد في عام (١٨٣٩م). وقد انتهى عهد التنظيمات بإغلاق مجلس النواب عام (١٨٧٨م).

العظمى" استخدمت في "الباب العالي"^(٣١) كناية عن الإنجليز، فهذه العقدة التي تسللت إلى روح الدولة قد دبت في أرواح أفرادها فردًا فردًا، وأخذ كل نصيبه، وغدا عُرضة للاضطرابات.

ويومئذ عاش كل من الشعب والدولة حالة من الانقباض، ووقعنا دولةً وشعبًا في ضغط معنويٍّ وروحيٍّ كما يحدث للفرد في أزمات الضمير والفكر، واليوم تتكرر تلك الأشياء، غير أنها ليست مقصورةً علينا نحن فحسب، فالعالم جميعه يمرّ اليوم بأزمات مررنا بها قريبًا، فطبعي أن تتأثر بلادنا أيضًا بهذه الأزمات؛ ولا بد من دراسة هذه الفترة الحرجة من زاوية تكرر الأحداث التاريخية كما ذكرنا، أي كما أن كل أزمة سبقت غدت بدايةً لحالة جديدة من الرفاهية والانفتاح، ستتحول أيضًا الأزمات الشدائد اليوم إلى جسر وراءه رفاه جديد؛ أليست وظيفتنا إذاً الإعداد لفترة جديدة من الطمأنينة والرفاه البشري؟

ويمكن تطبيق رؤيتنا لتكرّر التاريخ على فعالياتنا العلمية والمعرفية الخاصة بنا، فمتى عرض لتلك الأعمال القبض خرجنا منه برفاه وبسطٍ حتمًا، وأصبحت مرحلة القبض منطلقًا لمرحلة جديدة؛ وعندئذ لنقل باطمئنان: إن الأشياء نفسها ستحدث وفقًا لمعيار التماثل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح: ٥/٩٤).

(٣١) يطلق في الاصطلاح العثماني على مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية. وقد أنشأه السلطان محمد الرابع عام (١٦٥٤م)، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني رئيس الوزراء، وكان للباب العالي أهمية كبيرة في القرن التاسع عشر الميلادي وعلى وجه الخصوص في عهدي السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني. (سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض - ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٩).

حياتنا الثقافية ومتطلباتها

سؤال: ماذا تتطلب منا حياتنا الثقافية اليوم؟

الجواب: أهمّ وظيفة تقع على عاتقنا اليوم هي خدمة الحياة المعرفية لهذه الأمة، فلو عرقلنا هذا العمل المهمّ لتعرق كلّ شيء، وأرى أنّ أضرّ الرجعية والتخلف والتأخّر هذا الوضع، فعند التردّي في وضع كهذا من المتوقع ألا يُعنى بقضايا العصر أو يُعنى ولكن بعد فوات الأوان؛ إنكم إن فقدتم روح التجديد مع الاعتصام بالأصول - أي القرآن والسنة واجتهادات المجتهدين الخالصة ودرساتير الإرشاد والإخلاص - فلا تقدرون على تحليل المستجدات المتتالية تحليلاً صحيحاً، والتعرف على الألفاظ الإلهية والتواؤم معها، وإذا بكم وأنتم تنوون الإرشاد كأنكم تدعون الناس إلى دهاليز مُظلمة قائلين: "هيا أيّها الإخوة - نحن الأربعة أو الخمسة - لنقرأ هنا من مناقب الصالحين"، فتسلّون بها، والحال أن الظروف قد تغيرت وأحوال العالم قد اختلفت، فها هي ذي القضايا الإسلامية ما عادت تُبحث إلا في المحافل والمؤتمرات، فالمؤشرات الخاصة بظروف اليوم توجهنا إلى الجامعات والأكاديميات ومراكز البحوث.

واليوم أماننا عدة قضايا يجب حلها سواء في مجال العلوم الطبيعية أم في مجال العلوم الدينية، يقول مفكر العصر بديع الزمان وهو يوقظ العصر بكتابه "المحاكمات"، ويحفز الألباء إلى التفكير: "أرى أن الأمة الإسلامية خاملة منذ ثمانية قرون"، فالعالم الإسلامي أجمع لم ينشأ فيه عالم يلمّ بمشكلات العصر خلال مدة بلغت بضعة قرون.

نعم، وإن تَوَجَّنا هاماتنا ببعض علمائنا وقدرناهم حقَّ قدرهم، إلا أنّ هذه العظمة مقصورة على نظرنا لهم، فوضعهم تيجاناً على رؤوسنا ليس تعبيراً عن العظمة الحقيقية؛ فالعظمة الحقيقية بأبعادها الحقّة كانت في القرن الهجري الأول والثاني والثالث بل الرابع أيضاً، ويمكن أن يتحقّق نحوها في يومنا هذا. أجل، حدث نوعٌ من الركود في القرن الخامس الهجري، فالمدارس النظامية كانت تبدو فيه كأنها البداية والنهاية، فلنا أن نقول: إن العالم الإسلامي أخذ آخر ما أخذ من المدارس النظامية، ورغم أن هذا النبع الأخير كان مصدر إلهام لكثيرين بدءاً من الإمام الغزالي حتى فخر الدين الرازي، إلا أنه بعد ذلك تخلف عن هدفه السامي وعجز عن أداء الوظيفة المنوطة به.

واليوم: حدثت وستحدث عشرات وكبوات وتأخر في فهم أمورٍ تخدم أمتنا، ومن المفيد عرض تقرير للتذكير بوقائع كثيرة تعرض لكثيرين في كل مرحلة نمر بها، فيتعشرون ويتحتم عليهم تجاوزها،

ومردها إلى حياتنا الثقافية، بداية من تهيئة جوّ مناسب للطلاب حتى إنشاء التُّزُل والمدن الجامعية والمدارس، وهذا كأنه تنويه بما يجب اتّخاذه من تدابير عند الدخول في تكتّلاتٍ متنوّعة.

أجل، حدث هذا حقًّا، احتدم الجدل فورًا وقامت القيامة عندما اقترح أحدُ إنشاء نُزُلٍ طلابي فقيل له: "لم يكن عندنا، أنى لنا هذا؟"، ولما اقترح إنشاء مدارس اقتضتها الضرورة قال أناس: "هذه أمور لا تُعقلُ ألبتة"، وشوّشوا العقول، وإذا ما ظهرت محاولات لإصدار صحيفةٍ أو مجلةٍ أو إحداث قناةٍ تلفزيونيةٍ أو جامعةٍ ونحو ذلك، ودّ أولئك برؤيتهم وفهمهم لو يمنعون تلك الأنشطة الراقية.

فهذا الضرب من الناس لم تبلغ حياتهم المعرفية والفكرية والذهنية أن تدرك عصرهم، وتحجرت عقولهم في مراحلٍ عصريةٍ منصرمة؛ وأظنّ أن عددهم سيتضخم مستقبلًا، إذ ما أكثر من يصعب عليه منهم مواكبة سرعة العصر ذات البعدين: العلم والمعلوماتية، والواقع أنّ ثمة حاجةٍ إلى أرواحٍ ثوريةٍ لأجل المستقبل تطمح إلى التجديد بينما كانت مستمسكةً بالمبادئ الرئيسة، ومن حُرِموا روحًا كهذه إما أنّهم في المستقبل سيُغرّبون أو أنّهم غيرهم سيُغرّبون. نعم، ليس لأحد أن يستهين بإيمانهم وصلتهم بالله وبقضيتهم، إلا أن مواقفهم تلك تجعلهم مستحقّين بإطلاق لفظ "رجعيّين" عليهم.

وأجزم أن هناك مبررًا لما يقوله أهل الدنيا عنا. أجل، إن بيننا كثيرًا من الأرواح الرجعية، فهي عاجزة عن أن تكون ثوريةً متجدّدة.

وجليُّ أن الشيطان أوحى إلى أهل الدنيا بهذا المعنى، فهم يشعرون به ويطلقون علينا نحن كلمة "رجعيين" وإن لم يطلقوها على المسلمين الحقيقيين، والمعيار في هذا لدى بديع الزمان أنه يقول: "إذا سرى في شعورٍ منافٍ للإخلاص وإن قلَّ عُدَّت بيد أهل الدنيا كأنهم يمتلكون الكشف والكرامة"^(٣٢). أجل، أهل الدنيا مخطئون ظالمون قطعاً إذ يسمّوننا "رجعيين" بالمعنى الذي يرون، لكننا إذا نظرنا إلى المسألة من معاييرنا الحقيقية الذاتية يتبين أن في اتهاماتهم قدرًا من الصواب.

وما أودّ عرضه في هذا العرض المسهب هو أن نسأل أنفسنا: هل نستطيع أن نمثّل القرآن الكريم تمثيلاً يليق به في عصرنا؟ وأن نطبق ما في القرون الهجرية الأربعة الأولى على الأقل وفق ظروف عصرنا؟ فإن عجزنا عن جواب تلك الأسئلة بنعم أو ليس ذلك -إحقاقاً للحق- تصديقاً لما يرمينا به قسم من أهل التعصّب للإلحاد، وأن الله يُجري ذلك على ألسنتهم؟ ويمكن النظر إلى هذا وفقاً لمعيار: "إن في كل حادثة يد الإنسان ويد القدر معاً، ولكن الإنسان يظلم من حيث السبب الظاهري، بينما القدر يعدل لأنه من حيث السبب الخفي الحقيقي لتلك المصيبة"^(٣٣).

تأملوا: إن آخر كتاب فقهِي أُلّف في بلادنا على طريقة جمع آراء أهل الترجيح من الفقهاء -دع عنك تأليف أهل الترجيح أنفسهم-

(٣٢) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللعة الثانية والعشرون، ص ٢٤١-٢٤٠.

(٣٣) بديع الزمان سعيد النورسي: الملاحق، ملحق قسطنطيني، ص ١٧٨.

هو كتاب "ملتقى الأبحر" لإبراهيم أفندي الحلبي الذي عاش في عهد السلطان الفاتح وعمل إماماً في جامع الفاتح، وكتاب "الدُّرر والغُرر" لملاً خسرو في العصر نفسه، ومرّت عصور عليهما وتغيرت أشياء كثيرة جذرياً، وكان يجب إعداد لجانٍ وتنشئة متخصصين يفقهون الواقع، ولعدم توفر ذلك راحت القرون الأربعة أو الخمسة المنصرمة تصبغ عصرنا بمثل صبغة السابقين وتُضفي عليه طابعهم، فالحق أننا استمسكنا بأشياء معيّنة ثم عكفنا عليها دون تطويرها منذ سبعة أو ثمانية قرون.

وهذا لا يخالف احترامنا للسلف الصالح أولهم وآخرهم، علينا أن نحترمهم ونذكرهم بالخير ﷺ بعدد ذرات الكائنات، غير أن احترامهم يمكن أن يتحقق بالافتداء بهم، فهم وعوا أزمانهم في تلك الفترة التي مروا بها واجتازوها؛ ونحن مضطرون لاتباعهم واللاحق بهم.

وما سبقَ يمكن عدّه مقدمةً ومدخلاً لما سيأتي: نحن ملزمون بالبحث عن حلّ لمشكلاتنا التربوية، والإسهام في الحياة الثقافية للإنسانية بتراثنا الثقافي ومفهومنا الحضاري الأصيل؛ فإنشاء الجامعات والمراكز البحثية مهمّ جداً، ففيها سيقوم العلماء بالتحقيق والتفسير والتحليل لكلّ ما قيل في العلم حتى اليوم، ويصوغون العلوم من جديد، وإلا فلن نتخلّص من هذه الازدواجية.

وأودُّ أن أشير بالجملة الأخيرة إلى هذا الأمر خاصّةً: تستند العلوم الطبيعية اليوم بكلّ شُعَبها تقريباً إلى المادية الغربية، فالمادة

هي الأساس عند الغرب، والانفجار الأول ومبادئ الديناميكية الحرارية حقائق لا جدال فيها؛ ونحن عندما نقول شيئاً فوق هذا مستنداً على حقائق دينية نكون كأننا نرقع ثوباً خلقاً؛ وقد اضطلعت مجلات مثل "سيزنتي (الرشحة)"، و"ظفر"، و"سور"^(٣٤) - شكر الله سعيها جميعاً وأجزل ثواب كل من عزّزها ودعمها - بخدمات جليلة في هذا المجال.

ثمة حقيقة لا ينبغي أن نتجاهلها: إنَّ مردَّ كلِّ تلك التقييمات يرجع إلى إيجاد تركيبة مع الفهم الغربي للعلم، وهذا أمرٌ مصطنعٌ حتمًا، وليس هو التقييم الحقيقي المنشود، ومن المؤسف أننا لم نستطع بلوغ هذا المستوى حتى الآن، فلم تؤسَّس العلوم التطبيقية وفق أرضية سليمة من زاوية معاييرنا.

إن بعض كتّاب تاريخ العلوم من المسلمين اليوم يقدمون فرضيات متنوّعة للوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع، غير أن هذا لا يمكن إذا كانت هذه الفرضيات تعتمد على تحصيل العلم من الغرب أساساً ثم صبغِه بصبغةٍ إسلامية؛ وأظنُّ أنه لا يمكن "أسلمة العلم" طالما ظلَّ على الأرضية التي هو عليها اليوم، وقد يصل المسلمون إلى نتيجة إيجابية يوماً ما إذا ما فحصوا معايير الغرب، وأخضعوا اكتشافاتهم للدراسة العملية والبحث والتدقيق من

(٣٤) سيزنتي (الرشحة): مجلة شهرية بدأت تصدر في فبراير/شباط (١٩٧٩م)، يكتب الأستاذ فتح الله كولن مقالها الرئيس، وهي مجلة علمية، ثقافية، أدبية، تربوية، اجتماعية، وما زالت تصدر حتى الآن. مجلة ظفر (النصر): هي مجلة إسلامية علمية أدبية، بدأت صدورها عام (١٩٧٦م). مجلة شور: هي مجلة إسلامية علمية فنية فكرية. بدأت في الصدور عام (١٩٧٦م).

جديد، فالأرضية التي يُبنى عليها العلم اليوم أرضية خاطئة، وبلوغ الصواب من طريق خطأ أمرٌ مستحيل، فالمقاصد الصحيحة لا بد لها من وسائل صحيحة.

ولا بد لهذه المَهْمَةِ المُهِمَّةِ من روح ثورية تجدد النظر في كل أنواع الاستنباط والفكر الموجود الآن، ومنه المسائل الإسلامية، وتُخضَعُ كلُّ شيءٍ - عدا القطعي في الكتاب والسنة - للتقييم وفقاً لهذا الفهم الجديد، وبهذا ستتخلص من الازدواجية العلمية، وهل يُعقل أن يرفض هذا؟! إن الكون كتاب مسطور بقدره الله وإرادته ومشيئته وعلمه سبحانه، والقرآن الكريم بيان لكتاب الكون هذا، ولا تعارض بين هذين الكتابين أصلاً، وذلك هو الفهم الذي نطمح إليه، وعندما يتحقق هذا نكون قد تجاوزنا عصرنا.

إن الدراسات الأكاديمية أمرٌ لازم اليوم، ومن القصور قصر هذه الدراسات على العلوم الطبيعية والتقنية فحسب؛ فلا بد أن تدرج فيها فروع العلوم الإسلامية كلها مثل الحديث والفقه والتفسير وعلم الكلام؛ فيلزم الاستفادة من أعلى مستويات الإمكانات التقنية، ففي الحديث مثلاً لا بد أن تُراجع كُتُبُ الرجال مرةً أخرى، وينقد المتن وفقاً لمعايير علم المتون؛ فمن المحتمل أن بعض الأشياء لم تُلاحظ، والمتأخرون أمثال الدارقطني والحاكم والإمام البيهقي أثبتوا كثيراً مما ذهل عنه في علم الرجال، وأدرجوا ذلك في كتبهم، وهذا لا يضير عظمة الإمامين البخاري ومسلم، وكذلك فما سينجز

اليوم من أعمالِ بالحواسيب الآلية ربما يكون أسلم وأصوب مما حدث في الماضي فيما أظن.

أجل، ليست المسألة هي توجيه الناس إلى الجنة فحسب، بل إنها فتحُ لأبواب الدنيا كلها لتؤدِّي إلى الفردوس ونحن في طريقنا إلى الجنة، وهذا هو الأصل فيما أرى؛ ويمكن أن يتحقق هذا بالعلم والعرفان والفهم الإسلامي السليم الذي نورّثه للأجيال القادمة، بل نجعله روحًا للحياة، ونقدّمه بغبطة تتجلّى في قبول الناس جميعًا له، ولا يتمّ هذا إلا بتناول المسائل الإسلامية كلّها على مستوى أكاديمي، وأضعفُ الاحتمالات أن الأفكار البسيطة ووجهات النظر الساذجة قد تعدّ بشيء في هذا المجال.

لا يتمّ إحياء ثقافتنا والمحافظة عليها حيّة نشيطةً إلا بأيدي أصحاب الثقافة الحقيقية، وإن إعدادَ من ينهضون بتلك المهمة أمرٌ يقع على عاتقنا نحن.

وعي الصحابة

سؤال: كيف نستلهم وعي الصحابة ونحافظ عليه؟

الجواب: وعي الصحابة هو أفق الوعي، في مستهل حديثنا ندعو الله تبارك وتعالى ونتضرع إليه أن يُبصّرنا بهذا الوعي لنستشعر حقيقته، وأن يجعل من وعينا بخدمة الإسلام معيناً لآلامنا متدفّقاً على الدوام، وأن يُشيع بهذا الوعي نوى تلك الآلام في صدورنا، وأن يشغلنا عن أولادنا وعشنا الدافئ بما فيه من راحة وسكينة حتّى ينعم الآخرون بتلك السكينة.

واليوم لو كنت أهلاً لابتهلت إلى الله الآن أن يهيني بذور هذه الآلام؛ فأطوّف بها في البيوت كلها، وأثرها على صدور هؤلاء المؤمنين الذين يغطون في سباتهم ولا يستيقظون حتّى يتحسّروا ويتأوّهوا، فإذا ما باتت عقولهم تمتعض من تلك الآلام هبّوا من رقادهم، وطوّفوا في ردهات منازلهم ودهاليزها، فإذا رأيتهم حسبّتهم مجانين، ولست أرى النابهين الذين يصنعون المستقبل سوى هؤلاء المجانين.

بل إن لنا أن نذهب إلى أنه لا يكمل دين من لا يهمله أمر دينه أو من لم يُصَبِّبْ بمسّ الجنون أسى له وحرناً عليه. أجل، إننا لننشد وعياً في مثل هذا المستوى، والحق أنه شاق؛ إذ الألم مصدره، والتضجر صبغته، بيد أن ما جاءنا منه سبحانه فأنعم به وأكرم، سواء كان وردةً طريةً أو شوكةً قويةً، فإنعامه شائق، وقهره رائق، ولا ريب أن المكابدة والمعاناة في سبيل الدعوة أعذب من هذا كله.

وتتصدّر الرّاحة والدّعة قائمةً العوامل التي تفسد الإنسان، وحيثما هبت رياح الفتور فثمة نفر يسترخون تحسبهم أمواتاً كأنما غشيتهم رياح السموم، وبدهي أنه لا يتسنّى لنا فعل شيء في هذا الصنف من الناس.

لا بد لنا من جوار صُهاارة المعاناة ونيران الآلام في سبيل مستقبل شعبنا ومصيره؛ فالجرانيت -كما تعلمون- يتشكّل قريباً من صهاارة البركان ويتصلّب ثمّة حيث يطوّق الصُهاارة ويحوّل دون اندياحها، فلا مناص من أن نحيا في أوار اللهب والنيران بل حتّى في حمم البركان، كلّ ذلك في سبيل أمتنا وبلادنا وفكرنا... وهذا هو عين الوعي الذي نبتغيه، لكن من أين السبيل إلى ذرى معاليه؟

لا أخفيكم أنّ بلوغ مثل هذا الوعي دونه خرط القتاد، بيد أنني سأبذل وسعي لاستعراض شيء من خصائصه وسماته في بضعة محاور:

١- التفكير في الآيات الكونية: فلا بد من سبر أغوار كتاب الكون يومياً، وإحالة النظر في الوجود والحوادث على الدوام، ومراقبتها وتأملها عن كثب، فالتفكير مكوك ينطلق بالإنسان ويجول به أرجاء الكون كله دفعةً واحدة، بل إنه ليمضي به قدماً ليخبر أغوار الحوادث والموجودات.

والتفكير ميناء يمخر من خلاله الإنسان عُباب الكائنات ليرسو على ضفاف الأسماء الحسنى فإذا بها تُسَلِّمُهُ إلى مسماها المقدس، فيغشى دائرة الصفات في دهشة تغمره وحيرة تقهره، فإذا ما بلغ الإنسان تلك الرتبة اصطبغت مشاعره برضوان من الله وطاوعت أفكاره وأوامره؛ وإن شئت فقل في تلك الرتبة إنها مرتبة "الفناء في الله"، ومن بلغ هذا المقام أَلْفَيْتَهُ يعمل لله، ويتحرك ويسكن ويأكل ويشرب في سبيله، ويطوف في دائرة يرضى بها ربّه ويتغنى بها وجهه.

إن مكوك الفكر يرقى بالإنسان إلى الله صُعْدًا؛ لذا رُوِيَ: "فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً"^(٣٥)، إذ إن العبادة ترقى بالإنسان إلى ربّه أفضىً، أما التفكير فيقرّبه من الله ويرقى به إليه سبحانه عمودياً؛ ومن هنا شبهتُ التفكير بالميناء والمكوك؛ فالإنسان بالتفكير كأنّه صاروخ يرتقي قمماً، يبلغ آفاق سماء القرب الإلهي بلمح البصر، فتحقّه السكينة ويغشاه الاطمئنان.

٢- وردّ دائم من الكتب المفيدة التي تفيض علينا بالعطاء والبركة على قدر صلتنا بها، وتخصيص وقت مبارك لقراءتها يوميًا، وجعلها جزءًا من حياتنا.

٣- العكوف على قراءة الآثار التي استعرضت حياة الصحابة الكرام ﷺ للتأسي بها، فهذا من شأنه أن يشحذ طاقنا الميتافيزيقية الدافعة، ونستكشف به طريقنا نحو استلهامنا لوعي الصحابة، فهم الأسوة، وهم مشاعل الهدى، بل هم أشبه بالنجوم التي في السماء كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: "مَثَلُ أَصْحَابِي مَثَلُ النُّجُومِ، مَنْ اقْتَدَى بِشَيْءٍ مِنْهَا اهْتَدَى" (٣٦)؛ وعليه، فمن لم يتجمل بالصفات التي امتاز بها الصحابة الكرام من تطوُّع ومحوبة وإيثار ولم يتحمّل ما كانوا يكابدونه من ألم ومعاناة، ولم يظفر بذاك الوعي الذي قامت عليه هذه الصفات جميعها فأتى يُدرك شأوهم أو يعمل على شاكلتهم؟

هلّمّ لتشهدوا عمّة ما حاولت عرضه عليكم من خصائص هؤلاء الصحابة لا سيما إيمانهم وحركتهم التي بذّت المعايير الإنسانيّة كلّها: تخيلوا في هذا المقام إن شئتم حياة عبد الله بن جحش أو سعد بن الربيع أو عكرمة بن أبي جهل الذي لم يمض من حياته في الإسلام سوى سنة ونصف، أو عمه الحارث بن هشام، وإن الأمانى ستنبعث فيكم إبّانها ترى فيما أرى، ولسوف تلهجون بلسان واحد: يا ليتني كنت مصعبًا أو ابن جحش أو حمزة أو ابن هشام أو عكرمة...؛ أولئك الذين أشفى بعضهم على شفا جرف جهنم،

وبغته رأيناهم عانقوا الإسلام بضع دقائق في آخر رمقٍ من حياتهم وقالوا: "بسم الله، يا الله" فخرجوا في لمح البصر إلى أعلى عليين، فإذا ما عايتم ذلك جاشت مشاعرهم وتمنيتهم أن لو كنتم مثلهم وقال قائلكم: "يا ليتني كنت معهم"، ولعل في هذه المشاعر كافة ما يلهب مشاعرهم، وتختمر به مثل ما للصحابة من وعي لديكم.

٤- ومن الأهمية بمكان ارتياد محارِب العلم والمعرفة التي تخدم الإنسانية حتى يتسنى لنا الحفاظ على ذلك الوعي الذي اكتسبناه، فليس الخبر كالمعاينة، فلربما كانت المعاينة أوقع أثرًا عند كثير من الناس، وهناك أمثلة ونماذج كثيرة على هذا، ولذا فلو شعرنا بضعف في طاقنا الميتافيزيقية الدافعة فما علينا إلا اللجوء إلى مثل هذا الحلّ، والعمل على تجديد وإنعاش هذا الوعي.

وجهة نظرنا إلى الماضي

سؤال: يقال إن مبدأ "الدولة من أجل الدين" في عصر الخلفاء الراشدين تحوّل إلى فلسفة "الدين من أجل الدولة" عند الأمويين والعباسيين والسلجوقيين والعثمانيين؛ وهذا القول محاولة لجعل هذا التحوّل مصدرًا لكل الصراعات العسكرية والاجتماعية والسياسية؛ ترى هل نعيش وتيرة كنتك في يومنا هذا؟

الجواب: إن جميع ساداتنا من الخلفاء الراشدين أصحاب قيم وفضائل تفوق وتسمو على غيرها، وهم أسمى وأجلّ من أن نقيّمهم وفق معاييرنا نحن؛ ومن يفندون الأحاديث الشريفة في يومنا هذا ربما ينقدون الصحابة بل الخلفاء الراشدين أيضًا، أمّا نحن فنقول في قضية كنتك: "اللهم عافنا في أفكارنا وألسنتنا"، ونضرع إليه سبحانه أن يُعيدنا من شرّ ألسنتنا.

نعم، حظي سادتنا الخلفاء الراشدون بأعلى مرتبة، إلا أنهم ليسوا سواء، والصحابة الكرام الذين جاؤوا من بعدهم - وكلهم سادتنا وأرواحنا فداء لهم - ليسوا أقطابًا لفلِك واحد؛ فصحبة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم معية مكللة بمعية الله؛ أي إنّ هذه المعية كانت أيضًا مظهرًا من مظاهر معية الله تعالى.

أما سيدنا عمر رضي الله عنه فقد كان قائماً فريداً بفنائه عن ذاته وتواضعه، شديداً على الكفار، متواضعاً مهيباً الجناح مع المؤمنين... وكان أيضاً ممثلاً للعدالة والحق والاستقامة أيما تمثيل. نعم، إن سيدنا أبا بكر أفضل إلا أن سيدنا عمر يفضل به فضائل خاصة والقاعدة أنه: "قد يتقدم المفضل على الفاضل ببعض الفضائل". أجل، أقول وأؤكد أنه قد يتقدم المفضل على الفاضل في بعض الأمور؛ وهكذا سيدنا عثمان رضي الله عنه، كان يتقدم غيره بعفته وعصمته.

وهذا سيدنا عليّ كرم الله وجهه، سلطان الأولياء الحيدر الكرار، صهر النبي المختار صلى الله عليه وسلم، كان معروفاً بالتضحية والإيثار، ولقد انحدر من ذريته كثير من الأولياء إلى يوم القيامة يخدمون الإسلام وكثير من الأخيار، فله أجر خدمة هؤلاء العظام للإسلام، وهذه خصيصاً له بزّ بها غيره حسب ما تقتضيه القاعدة المذكورة، ولا ينبغي تفسيرها بشكل آخر؛ هذا والأمة راضية متفقة على إمامتهم وسبقهم وفضيلتهم وفق ترتيبهم في الخلافة.

وبالرجوع إلى السؤال فلا أرى صحّة إطلاق القول ب"أن الدين من أجل الدولة كانت هي الفلسفة السائدة بعد عصر الخلفاء الراشدين لدى الأمويين والسلاجقة والعثمانيين". نعم، ربما كان في الحكام الأمويين أو غيرهم من فهموا فلسفة الدولة في هذا السياق، إلا أنه ليس من الصحيح إطلاق الحكم والادّعاء بأنهم جميعاً كانوا هكذا؛ كما أنه من الخطأ قصر نهضة الدين على عصر الصحابة، فما أكثر المحاسن التي فعلها معاوية رضي الله عنه وغيره، بل حتى من عرفوا بالظلم؛

وأخصَّ عصر عمر بن عبد العزيز مفخرة الأمويين، كان كالوردة المتفتحة بين الأشواك؛ أنجز في عامين ونصف أعمالاً تستغرق قرناً من الزمان.

وهذا هارون الرشيد شخصية ذات قدر... والمهدي كان شخصية لها قدر رفيع أيضاً حتى كان يُنظر إليه أنه مهدي ذلك العصر؛ وفي السلاجقة كان "ألب أرسلان" مجاهدًا لا يُشقُّ له غبار؛ وكذلك كان "ملك شاه" رجل دولة عظيمًا؛ وأرى أن العثمانيين أيضًا ظهروا ومكَّن لهم حتى السلطان الفاتح - جعل الله الجنة مثواه - مَمَّنْ مُكَّن لهم بفضل قمم من البشر كأنها سلاسل الجبال؛ كانوا جميعًا عباقرة مرموقين، وما قيل عنهم في كتاب "الشجرة النعمانية" صحيحٌ حقًّا؛ فهم مَنْ أدَّوا الأمانة على أكمل وجه بعد سادتنا الصحابة الكرام رضي الله عنهم. نعم، ثمة ازدهار وانحطاط حدث بعد السلطان الفاتح؛ غير أن الحفر التي سقطوا فيها إذا قارنَّاها مع ما نحن فيه اليوم فإنَّها تُعدُّ قبابًا تعلق رؤوسنا.

من أجل ذلك لا أرى من الصواب حصر مسألة "صلة الدولة بالدين وتسخيرها لخدمة الدين" بعهد الخلفاء الراشدين فحسب، فبعض الناس في عصرنا كالمودودي مثلًا لديهم دقة مفرطة بعض الشيء في هذا الشأن، أي في مسألة فصل الخلافة عن الملك، وأظن أن مردَّ ذلك إلى الإفراط في كلِّ من التعصُّب لآل البيت، والتحامل على الأمويين؛ وإنِّي أذكر أمثاله أيضًا بخير لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله

يقول: "أذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ"^(٣٧)؛ بيد أنه يجب على مَنْ يؤلّف في أي مجال، ويحظى كلامه بالقبول أن يدقّق أكثر؛ فإن العلوم الإسلامية بحرٌ محيطٌ، فلا ينبغي أن يتحدث كلّ من أراد وكأنّه متخصص وفي كلّ المجالات يُحيط؛ إنهم يفرطون في الأمر قليلاً... يسعون لرفعة شأن آل البيت وتعظيمهم، فيضرونهم دون قصد أو تخطيط.

هذه نظرتي لهذه القضية ولل فكرة التي تتوارى وراءها، ولا أو من بإطلاق القول "إنه ما من يوم إلا والذي بعده أسوأ منه"؛ ففي الشجرة النعمانية - كما ذكرنا سابقاً - إشارة إلى أن العثمانيين قادمون وسيعملون في الدولة كما كان الصحابة رضي الله عنهم يعملون؛ وقد ذكّر هذا القول في العصر السلجوقي قبل أن يظهر العثمانيون على ساحة التاريخ أصلاً؛ وهذا يعني أن اليوم ليس أسوأ من سابقه مطلقاً؛ فالنهوض من الحُفر إلى القمم ممكن دائماً، وقد تعقب مظاهر الرقي مظاهر الانحطاط؛ ويؤيد هذا أنّ القرآن الكريم أشار إلى أنّ الأحداث التاريخية في تكرار دائم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَلِكُ الْيَوْمَ يُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٤٠/٣).

ولو تناولنا القضية من وجهة نظر مختلفة لتبين أن الحوادث لا تسير على خطّ مستقيم؛ فكل شيء يدور بشكل دائري؛ فإن كان اليوم عيداً لبعض الناس، فلا ريب أن الغد سيكون عيداً لآخرين، وهو ما تحدث عنه أبو سفيان يوم أحدٍ قائلاً: "الْحَرْبُ سِجَالٌ"^(٣٨)، وهذا هو

(٣٧) سنن الترمذي، الجنائز، ٣٤؛ سنن أبي داود، الأدب، ٤٢.

(٣٨) صحيح البخاري، المغازي، ١٧؛ مسند الإمام أحمد، ٥٥٦/٣٠.

الحال في القشرة الأرضية؛ فالقمم تغور فتغدو حفراً حين تنهار، وتغيضُ الجبال وتتكوّن البحار؛ وبدهيّه أنه ستتكوّن قممٌ في أماكن أخرى في اللحظة نفسها، وهكذا الحوادث الاجتماعية دائماً.

إنّ سرعة الانهيار والانحطاط ازدادت تدريجياً منذ القرن الثامن عشر حتى القرن التاسع عشر، فلما كان القرن العشرون سويّنا بالأرض؛ ونأمل أن يكون القرن الحادي والعشرون العصر الذي نهض فيه، وبلغ الذرى مجدداً، وقد تأتي أيام براءة ساطعة على نحو ما قبل أن ينصرم النصف الأول منه إن شاء الله تعالى، ربما لم يشهد العصر العثماني شيئاً من روعتها وعظمتها! ونوجز ما قلناه وما يمكننا قوله بعبارةٍ أخرى فنقول:

منذ قيام الدولة الإسلامية حتى يومنا هذا ونحن نمرّ بمراحل ذهبيّة رغم الانقطاع الذي حدث أحياناً، وكان الدين والخلافة أو الإمامة أساساً فيها، وكانت الدولة خادمةً للدين، واستمدت الدولة كلّ قوتها من الدين في تلك الفترات، واستندت إلى توجيهه وإرشاده، وصار الدين مصدر النور للطرق التي ستمرّ بها الدولة؛ فحمى الدين الدولة من التردّي في الأخطاء، ومن الوقوع في كثير من المآزق.

نعم، ربما تحوّلت الإمامة والخلافة في فتراتٍ مختلفة من التاريخ إلى سلطنة، غير أن هؤلاء الممثلين الكاملين أي الذين جعلوا الإمامة بمستوى السلطنة لم يُسلموا قلوبهم ولا عقولهم للسلطنة ألبتة سوى نزرٍ يسير منهم؛ وهو ما حدث على طول الخطّ الممتد من طارق ابن زياد حتى السلطان القانوني: فلما دخل طارق بن زياد "طليطلة"

ووطِئَتْ قدماه خزائن الملك، أسرَّ في نفسه وقد مرَّغ جبينه بالتراب قائلاً: "كنتَ عبدًا من قبل، ثم قائداً بالأمس، وفاتحاً اليوم؛ فلا تنسَ أنك غداً سترقد تحت التراب"، وقال القانوني بكل صدق وإخلاص عندما عاد من "فيينا": "لقد شعرت بشيء من الغرور في نفسي، فابسطوا فراشي اليوم في الممرِّ؛ ولطالما كانوا جميعاً يترنمون بتلك الروح.

إن هؤلاء القادرين على كبح جماح أنفسهم كانوا مهيزي الجناح تواضعاً حتى وهم في أزهى ساعات النصر، وهذا يُظهر أنه كانت منّا قمم شاهقة؛ وأن كل شيء كان يسير حقاً وفقاً لروح الدين، وأن الحياة بأكملها اصطبغت بهذا الشعور؛ غير أنه كان يظهر أحياناً عند كلِّ من الأمويين والعباسيين والقراخانيين والإلخانيين والخوارزميين والسلاجقة والعثمانيين من يقدِّمون المُلك على رضا الله، عفا الله عنهم وعنا أجمعين.

ولكنَّ تعميم حالات نادرة وتشويه صورة تلك الدول الذهبيَّة من خلال ذلك هو عينُ الظلم، ولا يجوز لنا أن نفعل شيئاً كهذا؛ لأن القرآن الكريم ينصحننا بأن نذكر بالخير من سبقونا.

ناهيك عن أن السلطنة التي كانت في تلك الفترات لم تكن ملكاً محضاً؛ وإنما كانت تهدف إلى فتح البلاد من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، والتعالي والكبرياء في مواجهة الأعداء المتغترسين المتكبرين، وهذا الكبر صدقةٌ يستحسنها الدين.

أما ما يحدث في يومنا فهو كمرحلة البرزخ من هذه القضية؛ لذلك فالمسؤولية التي تقع علينا اليوم هي تحديد القواسم المشتركة من أجل التمكن من الحوار مع الجميع، والقدرة على التفاعل مع العالم أجمع.

آليتان في الإنسان: النفس والضمير

سؤال: للنفس والضمير دور مهم في ترقّي الإنسان وتديّيه؛ فكيف نفهم ماهيتهما؟

الجواب: إن للإنسان جانبيين هما: الملك والملكوت؛ ويمكن تسميتهما بأسماء أخرى، وقد أطلق بعضهم عليهما الملائكي والشيطناني أو الجسدي والروحاني أو المادي والمعنوي أو النفسي والوجداني، وسعوا لشرح الحقيقة نفسها بعبارات مختلفة.

والأفضل تناول الجانب المعنوي والمادي من الإنسان في صورة آليتين مختلفتين، وتقييمهما في ضوء ذلك؛ ولنُطلق على المعنويّ اسم "آلية الوجدان"، وعلى الآخر "آلية النفس".

فبينما يُشكّلُ آلية الوجدان القلب والروح والسر والخفي والأخفى واللطائف الربانية المتعلقة بعالم الأمر والإرادة والإدراك والشعور والحسّ والمشاعر؛ تُشكّلُ آلية النفس الغرائز والنزوات والأهواء والحقد والبغض والغضب والعناد... هذه المشاعر التي وُهبَت للإنسان لغاياتٍ وحكمٍ معيّنة... وهاتان الآليتان تعملان غالباً على النقيض، غير أنّ آلية النفس تغدو إيجابيةً إنْ تغلّبت عليها آلية الوجدان، ثم تتحوّل إلى آلية تعمل على رفعة الإنسان ورقّيه.

نعم، يمكن أن تصير آليّة النفس نافعّة للإنسان حينما يجتاز مرتبة النفس الأمّارة -وفقاً لتصنيف الصوفية- إلى مرتبة النفس اللّوامة فالمُلمّمة فالمطمئنة فالراضية فالمرضية فالصافية، ولأجل هذا فإنه من النقص والخلل تناول الإنسان من جانبه المعنويّ فحسب، واعتباره مجرد آليّة للوجدان فحسب؛ إن الولاية الحقيقية هي ولاية الصحابة؛ وقد صبغ الصحابة آليّة النفس بـ"صبغة الله"، ووضعوا خاتماً من أختام الولاية حتى على المشاعر السلبية لدى الإنسان.

ولتناول الشهوة مثلاً: إن هذا الشعور يغدو منبعاً محضاً للشرّ إن تمّ تفعيله من الناحية المتعلقة بنفسه فقط؛ لكن هذا الشعور أضيفت عليه في نهج الصحابة كيفة تجعله بعداً من أبعاد الولاية؛ أي إن الشهوة حينما توضع في الحلال يُثاب الإنسان حتى على علاقته مع أهله؛ وقد عجب الصحابة حين قال رسول الله ﷺ ذات يوم ذلك، فتساءلوا: "يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟"، فأجابهم الرسول ﷺ إجابةً منطقيّة، وفطريّة بقدر منطقيّتها قائلاً: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"^(٣٩)؛ إذا ترك الحرام يُكسب الإنسان ثواب القيام بأمرٍ واجب؛ وهذا يعني أن الإنسان في استطاعته أن يفوز بالجنة بهذا الشعور الخاصّ بآلية النفس.

ولنا أن نعد جميع المشاعر الخاصة بآلية النفس وسيلةً للشعور بأحوال الجنة؛ أي كما يستطيع الإنسان بالأحاسيس والمشاعر

الخاصة بآلية الوجدان أن يشاهد بعض الأبعاد الخاصة بالجنة ويعايشها، فإمكانه كذلك أن يُحسّ ويدرك بعض الأحوال الخاصة بالجنة بواسطة بعض الأحاسيس الخاصة بآلية النفس المزكّاة، ويبدو أن هذا أحد أسرار وحكم إبهاج الجنة للروح والجسد معاً؛ وفي حديث القرآن عن خلق آدم عليه السلام من تراب وطين وصلصال وغير ذلك إشارة إلى بعض المواد التي تكشف ماهية الإنسان؛ وإلا فمن القصور حصر تفسير هذه المواد على أنها التراب والطين والصلصال التي نعرفها.

وهاك شعور الغضب لدى الإنسان، إنه شعور يُفسد الإنسان إن بقي على حاله، وربما يحوّله إلى فرعون جانٍ ملطّخ الفكر والمشاعر واليدين والعينين بالدماء، غير أن الإنسان إن استخدمه في غاية نبيلة، أي إن دخل مثلاً في نزاع من أجل الدفاع عن دينه وعرضه وشرفه ووطنه بالشعور نفسه وقتلَ مَنْ أمامه فهو غازٍ، فإن قُتل فهو شهيد؛ فغضبٌ على هذا النحو مقبول عند الله مثل "الحلم" أو أكثر... وإذا كانت الجوانب الترابية ترفع الإنسان إلى هذه الدرجات إن عولجت جيداً، فلکم أن تتخيلوا ماذا يُمكن أن يحدث إن أحسنّا استخدام آليّة الوجدان.

أجل، يمكن للإنسان بلوغ مستوى الملائكة في أيّ وقت شاء ولو بخصائصه الترابية، بل إنه قد يفوق الملائكة عندما تبدأ آلية الوجدان عملها؛ ذلك أنه لا شيء يدفع الملائكة إلى الشر، فإرادتهم تتجلى في اختيارهم عملاً من الأعمال المعروضة المرضية عند الله،

أما إرادة الإنسان فهي مكلفة بالاختيار بين الحسن والرديء، ونظرًا لأن "العُثم بالغرم" فإن اجتيازَ الإنسان تلك المعضلات التي تواجهه يُعدّ وسيلةً وطريقًا ليكون أفضل من الملائكة.

بالوجدان يجد الإنسان ذاته وربّه؛ ولأجل هذا فإن مئات الناس بدءًا من عظماء الإسلام كالإمام الرباني والإمام الغزالي ومولانا جلال الدين الرومي وبيديع الزمان سعيد النورسي، وصولًا إلى كثير من المفكرين الغربيين تناولوا الوجدان إما بالكشف وإما بالحدس، وتوقفوا كثيرًا عند تلك الخاصية؛ وإنني لأستخدم بصفة خاصة عبارة "الكشف والحدس" هنا؛ فالأولياء يعلمون خصائص الوجدان كشفًا، أما الفلاسفة فيعرفونها حدسًا، وقد اتفق الفريقان على أن الوجدان لا يكذب.

ويُدرج الأستاذ بديع الزمان الوجدان في مؤلفاته الأولى بين البراهين الرئيسة والأساسية التي تدلُّ على وجود الحق تعالى^(٤٠)؛ غير أنه لا يرى الوجدان دليلًا موضوعيًا واضحًا بالقدر الذي يفهمه الجميع؛ لذا تجده في كتابه "الكلمات" اقتصر من هذه البراهين على ثلاثة: الرسول ﷺ، والقرآن، وكتاب الكون^(٤١).

أجل، لا يستطيع كل إنسان أن يفهم لغة الوجدان الخفية؛ ولأجل هذا لا يُعدّ دليلًا موضوعيًا، غير أنه أعظم دليل وأقوى برهان عند

(٤٠) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري، نقطة من نور معرفة الله، ص ٤٢٣-٤٢٧.

(٤١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة عشرة، الرشيحة الأولى، ص ٢٥٣-٢٥٤.

من يفهم لغته؛ فلا قَبْلَ لأية معلومات أو مكتسبات على الإطلاق
أن تُشعر الإنسان بما يُشعره به وجدانه.

ففي الوجدان نقطة استناد ونقطة استمداد: بهما يُدرِكُ الإنسان
عجزه وفقره، ويعتمد بهذا الإدراك على الله، فيطلب ما يطلب منه
تعالى؛ وما دام لدى الإنسان حسّ "طلب المدد"؛ فهذا يعني أنّ
هناك من سيّمده، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان منح الإنسان هذا
الحسّ نوعاً من العبث، ولا عبث في الكون ألبتة، فلا شك أن هناك
مقابلاً لكلّ شعور لدينا، إذا إنّ ثمة مقابلاً لكل من نقطتي الاستناد
والاستمداد الكامنتين في الوجدان، بيد أن من لم يصغ إلى وجدانه
ولو مرة واحدة في حياته، يتعذّر أن يشعر أو يحسّ بهذا؛ وإنّ الشعور
قسم تابع لألية الوجدان، غير أنه لا يُعنى بقيمته الشخصية قيمةً
قائمة برأسها؛ وحين ينضمّ إلى الإرادة والحسّ والقلبِ يصبح وكأنه
وجدانٌ مستقلٌّ بذاته.

إن الوجدان صوت إلهي سماوي يصدع ويجهر وحده دائماً
بالحقّ والحقيقة؛ مثله في ذلك مثل كل شواهد وجود الحق التي لا
تصمت في أي وقت أبداً؛ بيد أن هذا منوط بالوجدان الذي يدخل
في إطار تعريفنا نحن للوجدان، وإلا فإنه من المستحيل ألبتة انتظار
النتائج نفسها من وجدان خضع لألية النفس، وانسحق تحت وطأتها.

أجل، تصوّروا إنساناً تحوّل برمته إلى عاشقٍ للشهوة والحقد
والغضب والمنصب والمقام؛ إنّه بذلك يخضع في كلّ شؤونه لتأثير
تلك المشاعر السلبية التي أحاطت بروحه، فالوجدان لدى مثله

مكتوف الأيدي عاجزٌ عن التأثير، وأمثال هؤلاء ليست لديهم أية معلومات عن آلية الوجدان؛ لذا فإن إدراكهم معنى الوجدان وغايته الأسمى من كل الغايات أمرٌ غير ممكن.

وثمة أمرٌ آخرٌ مهمٌ نشير إليه هنا:

يقول "كانط" في كتابه المسمى "نقد العقل المحض": "إن الله يُعرف بالعقل العملي، لا بالعقل النظري، فإن التصرفات الحسنة، والأعمال الحسنة سرعان ما تتحوّل إلى طبيعة في الإنسان، وتبلغ به نقطة لا تُبلغ بالعلم المجرد. أجل، إن المعرفة والمعلومات المجردة لا ترفع الإنسان إلى هذا المستوى ألبتة، فمن حُرّم التطبيق والعمل يعجز قطعاً عن الإحساس بما يجب عليه الإحساس به في ضميره مهما قرأ من كتبٍ وأسفارٍ.

أما ما يجب على الإنسان عمله فهو الأعمال التي استحسناها الدين ووصفها بـ"الصالحات"؛ وإعمالُ آلية الوجدان واستثمارها ذو قرابة قريبة جداً من تطبيق مفهوم "الصالحات" في الحياة.

أسلوب النقد

سؤال: النقد يكاد يكون المعيار الوحيد اليوم في الحديث عن القضايا الإدارية والسياسية، فهل هذا المنهج صحيح؟

الجواب: شاع قول العرب "الهدمُ أسهلُّ" حتى غدا مثلاً. أجل، ما أسهل التخریب والنقد والهدم، وما أصعب "البناء"؛ لذلك كان على من يسعى للهدم أن يبحث أولاً عن طرق "البناء"، ويحددها ثم يبدأ "الهدم"؛ وإلا فإنه لن يمكن أبداً ملء الفراغ الناتج عن الهدم.

أجل، هناك قضايا لا تتحمل التخریب ولا النقد ولا الهدم ما لم توضع لها بدائل؛ وأظن أن تحقيق التوازن في هذه المسألة هو من أهم وظائف الرسل خاصة رسولنا مفخرة الإنسانية ﷺ. أجل، لقد كان يكشف مثالب المجتمع القارة فيه، ويصدع بأسلوب مقنع نبيل لا يخشى أحداً، قائلاً: "هذا خطأ!"; غير أنه كان يقدم البدائل الحقيقية البناء فوراً، فيحول دون الفوضى والفراغ، أي كان يوازن كل شيء ويتفحص إيجابياته وسلبياته، ولا يمنح الفراغ الفكري والحسي أية فرصة، وهذا المنهج يلقننا دروساً كثيرة: منها أن محاولات الهدم العشوائية جناية ما لم تسبقها خطط ومشاريع لـ"بناء" يقوم على أرضية سليمة، وإحاطة تامة بالحراك.

ولما لم يُطبَّق هذا المنهج في الحياة عاش الفرد والأسرة والدولة في فراغ خطير على قدر الأخطاء المرتكبة ومداهها، وانساق الجميع إلى الفوضى؛ ففي الدولة العثمانية مثلاً، قد عُرض السلاطين أحياناً، وأُطيحَ بهم، وطولبَ بمن هو أفضل، فإذا بالأوضاع السلبيّة تتفاقم، فاستحال العثور على من هو أفضل، وراح الجميع يتحسّر على الأيام الخوالي وأصحابها.

ومن ذلك مثلاً أن طلعت باشا، وجمال باشا، وأنور باشا، ورضا توفيق، وتوفيق فكرت، و-بقدر ما- محمد عاكف، وكثيرين غيرهم أطلقوا على السلطان عبد الحميد -جعل الله الجنة مثواه- اسم "السلطان الأحمر"، واضطلعوا بدور فاعل في خلعه، وصفقوا وهللوا لذلك، لكن كلاً منهم ندم على ما فعله وقال عنه لاحقاً كلمات تقدير وإجلال، عندما احتلّ اليونانيون "إزمير" بكى رضا توفيق في ميضأة الجامع منتحباً، ونظم شعره "استمداداً من روحانية عبد الحميد" .أجل، هكذا قالوا، ولكن "بعد خراب البصرة"؛ لقد انهارت الدولة العلية، وضاعت الموصل وكركوك والسليمانية ومصر والبلقان، وضاع الأمن في هذه المنطقة الذهبية، ثم أفاقوا من نومهم العميق، والعالم اليوم يدفع ثمن هذا، يدفعه غالباً جداً؛ لأن الدولة العثمانية كانت عنصر توازنٍ بشرقها الأوسط، وقوقازها، وبلقانها؛ هيات... لم ندرك ونع هذه الخصوصية إلا بعد الانهيار.

كم هو مؤلم أن تتكرّر تلك الأخطاء التاريخية في هذه الآونة أيضاً، وتخرّب الدول أو الحكومات دون إقامة الخطط والمشاريع

الصحيحة البديلة، وتستخدم المعارضة شعارات لمجرد النقد فحسب مثل: "نمتنع عن التصويت لهذه القرارات" أو "ما هكذا تمارس السياسة الخارجية والسياسة الداخلية... إلخ"، وإذا قيل لهم: "قولوا واكتبوا ووجهوا إلى ما يجب أن يكون"، قالوا: "لا بُدَّ من معلومات واسعة، وتجربة سابقة قوية، ونحن نفتقر إلى هذا". نعم، لكلِّ دولةٍ وحكومة أخطاؤها، غير أنه ما ينبغي أن يجري حسابها ألبتة وفقاً لفلسفة "الهدم أولاً ثم يبدأ التفكير في كيفية البناء"؛ فهذا يوهن الدولة ويمهد السبيل لأن تخسر سمعتها داخلياً وخارجياً، بل ربما تخسر الدولة كلَّ أرصدها، فمثلاً لو أن بلدنا التي أكسبها موقعها الجغرافي وضعاً إستراتيجياً متميزاً كانت أقوى بقليل مما هي عليه اليوم في إطار التموجات السياسية الجارية حولنا، لأمكنها أن تجذب كلَّ آسيا الوسطى إليها وتأخذها إلى جانبها بجاذبية وقوة لتغدو هي "المركز"، بل ربما استطاعت جمع العالم الإسلامي كله حولها.

ألم يكن الأمر هكذا في ماضيها؟ ألم يظهر كل من: ألب أرسلان والفتح والقانوني بفضل الثقة التي نتجت عن حسن القبول القوي، وأصبحوا أملاً للأمة تدوي أصواتهم في أرجائها؟ ألم يستجيب كثيرون لهذا الصوت المدوي؟..

أجل، لا علاقة لنا بمن يجرون وراء حسابات خاطئة؛ فإننا منذ وُجدنا حتى اليوم ونحن نهتم بحال ومآل هذه الأمة، باكين أحياناً، وضاحكين أخرى، ولا تفارق شفاهنا ابتسامة الأمل أبداً؛ لقد قدّمنا

ما قدمناه من العناية بحماية قلبنا حتى لا تعرض لها هزة جديدة، ولطالما بحثنا لمواجهة المخاطر عما يجب علينا فعله واستقرأناه، وقلنا لكل مَنْ تَبَعْنَا قَرْيَةً قَرْيَةً، وَقَصَبَةً قَصَبَةً، ولكل مرتكب لأيّ ضربٍ من الشرِّ: ﴿كُلُّ يَعْملُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٨٤/١٧)، ولم نستأ، ولم نغضب من هذه السلوكيات الصادرة عن القائمين على هيئات الدولة، ولم نسخط لا على دولتنا ولا على أمتنا وما ضقنا ذرعًا بذلك أبدًا.

أجل، إن الاتزان مهم جدًا في هذا الشأن، وإنني على قناعة بأن هناك كثيرًا من الأخطاء تُرتكب اليوم في هذا المجال، علمًا أنّ هذا الضرب من السلوكيات -كما قدمنا أنفًا بالأمثلة- مضاعفاته وأضرارُه غير متوقّعة بل ربما لا تكفي طاقتنا لأن نعلم وتصلح ولو واحدًا منها.

إن هذا النمط من التفكير ربما يزعج أناسًا يظهر بمظهر الراديكاليين؛ إنّ هذا الموضوع حساسٌ إلى حدّ كبير، فلا أريد أن يُستخف بأيّ فكر إسلامي، ولا أَرْضَى بأن يمتعض أيّ مسلم أبدًا، والواقع أننا أمام آراء متباينة جدًا للمسلمين؛ فترى من يقول "أنا مسلم"، وفي يده قنبلة، ويتوشح سلاحًا، يسير به في الشوارع يُقتلُ الناس، فمن العسير فهم هذا ومواءمته مع الفكر الإسلامي، وإرضاء الجميع غاية لا تُدرَك طبعًا؛ لذا أخاف أن أُطلق كلماتٍ وبياناتٍ قد يُساء استعمالها وربما تُفسر تفسيرًا خاطئًا، ورغم هذا فبيان الحق والحقيقة مسؤوليتنا.

والحاصل أنه لا بد من تنفيذ كل شيء في إطار قواعده، ولا بد من إظهار العناية البالغة عند العمل حتى لا ندمر كل شيء ونحن نسعى للبناء؛ ينبغي ألا نسقط في فراغات منطقيّة، وطريق ذلك أن نعتبر بالماضي، وبالأحداث التاريخية، وألا نغامر بالأمة والدولة.

الإسلام والحركات الانفعالية

سؤال: هناك حركات انفعالية تنتسب إلى الإسلام تواجه الأنظمة الحالية في العالم؟ فما رأيكم في هذا الموضوع؟

الجواب: لا أعرف أن الحركات الانفعالية قد أفادت شيئاً على مرّ التاريخ أو أنها بلغت الغاية من أفكار أصحابها؛ لن أذكر أسماء هنا، فالحركات الانفعالية -إسلامية كانت أم غير إسلامية- ظهرت في مناطق مختلفة من العالم وسرعان ما تعثرت، وقد كانت أولى الحركات الديمقراطية لدينا نحن أيضاً حركات انفعالية، ولم تُعمر؛ إذ انهارت وغارت، والآن:

١- واجب الوقت في رأينا هو إيضاح الفكر الإسلامي واستقراء طرق الإقناع، وعلى سبيل المثال أرى أنّ أرضنا كانت ستغدو روضةً بهيئةً منذ زمنٍ مديد لو كان في العهد الذي نشأ في بلادنا أول حركات انفعالية جهودٌ صادقة مخلصّة طويلة المدى تهدف إلى تربية الإنسان وتنشئته بدلاً من تلك الحركات الانفعالية والانشغال بکراهية من يعادون قيمنا المقدسة، ومواجهتهم بكل مشاعر البغض والحقد.

تأملوا، لقد مضت نحو أربعة عقود منذ الخمسينات حتى يومنا هذا... إن من كانوا في العاشرة من العمر يومئذ لو أنهم درسوا في الجامعة، لبلغوا الذرى الآن أو أوشكوا، ومن كان في مطلع العقد الثاني سيصبح في عُرة العقد السادس اليوم، ومعناه أنهم كانوا سيعيشون أنضج فترات عمرهم في مستوى رؤساء الوزراء ورؤساء الجمهورية، غير أنهم لطالما كانت أفعالهم أفعال الساخطين... لقد انمأّت بمرور الزمن هذه الحركات التي يمكننا أن نسميها "حركة الساخطين"، وتوارت مخلقة الحسرة والهجران، غير أننا نذكرهم جميعاً بخير.

٢- إنجاز ما يمكن إنجازه من أجل حاضر هذه الأمة ومستقبلها بلا تخريبٍ أو إلحاق الضرر بوحدها، أي ينبغي عند الشروع في "البناء" النأي عن التورط بـ"دمار" يستحيل إعمارها على مدى أجيال، وإلا عوقبنا بخلاف ما كنا نبغي ومُنينا بلعنات الأجيال القادمة وبغضها، وحُرِّمنا كثيراً من الأمور الأخروية.

٣- ربما يرغب المؤمنون أن يعيشوا حياةً رحبةً رحابة عوالمهم الإيمانية الذاتية، غير أن شعوراً كهذا لا ينبغي أن يكون مقصداً أصلياً أو منتهى الغايات؛ إذ لم ينس رسول الله ﷺ بينت شفة في هذا الأمر وهو يبلغ رسالته للناس في العهد المكيّ، بل نزلت الآيات الكريمة في قضايا الإيمان والحقائق الإيمانية، وجلُّ الأحاديث الشريفة وردت فيها أيضاً، والمجاهدون الذين بلغوا رسالة الإسلام للعالم في العقد التالي لم يتشوفوا إلى أي شيء، بل واصلوا كفاحهم تحت

وطأة ظروف شديدة ولم تساورهم إذ ذاك أية خواطر تُعكّر صفاء نياتهم.

وعلى عشاقهم اليوم العازمين والناوين الاقتداء بهم في كل شؤونهم ألا يُعكّروا صفاء أفكارهم بخواطر فضوليّة لا تعنيهم كهذه، وعليهم أن يضاعفوا همهم في خدمة القرآن والإيمان، وأن يستخدموا كل طاقاتهم لنيل رضا الله، وأن ينسجوا نسيجهم حوله؛ والحقيقة أنّ الخواطر الأخرى تعني - معاذ الله - مساومة الخالق سبحانه وتعالى، أي كلُّ خاطرة مثل: "إذا عملت كذا فسأعيش حياةً هكذا وهكذا، أو لا بد أن تكون..." أمورٌ غير لائقة، وهي خلافٌ وعي العبودية لله مطلقاً، ومن يلج دوائر فاسدة كهذه يتعذّر عليه الخلاص منها.

أظن أن مَنْ يستهدفون المنافع الماديّة والدينيّة فيما يضطلعون به من خدمات، ويجعلونها غايتهم ومقصدهم، يُحرمون تأييد الله ﷻ، حتى وإن ضحوا في سبيل هذا بأرواحهم وأموالهم وثرواتهم فهم لا محالة خاسرون وسيخسرون؛ لأن الغاية المثلى لا بد أن تكون لله فحسب، ولا بد أن يكون الله سبحانه ورضاه هما الهدف فحسب، وحين يتحقق هذا يبلغهم أهدافهم، ولا يُقضى عليهم بالخذلان والخسران.

٤- طلاب متاع الدنيا كثير، وذوو القوة والنفوذ كثيراً ما يلجؤون في الأمور الدينيّة التي يكثر طالبوها للقوة والضغط ليحصلوا عليها أو لئلا يفقدوها إن كانت في أيديهم؛ وتصرفهم هذا أمر طبعي؛

إذ لا آخرة لأهل الدنيا، بل لهم الدنيا فحسب، فيشقُّ عليهم أن يفقدوا هم أو أطفالهم أو أحفادهم دنياهم وما فيها من متاع، أي حينما تتنافس طائفتان من الناس على هدف واحد من هذا الأمر فذاتُ الشوكة منهما تتغلب على الأخرى، إذًا فعلينا أن ننشغل بالتبليغ والإرشاد وأن نجتنب الحركات الانفعالية، وأن يكون هدفنا الوحيد رضا الله ﷻ...

عالمية الإسلام

سؤال: كيف ندرك خصوصية عالمية الإسلام؟

الجواب: أجل، إن الإسلام دينٌ عالمي، فهو يقدم رسالاته للناس جميعاً بوضوح تام لا فرق بين قوم وقبيلة وشعب ولا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، ولا بين مكان وآخر، فآسيا وأوروبا وأمريكا وأرض العرب سواء... إنه يخاطب البشرية جمعاء، تأملوا في القرآن كلام الرسل جميعاً منذ آدم عليه السلام حتى قبيل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ تجدوهم جميعاً صلى الله عليه وسلم يخاطبون أقوامهم قائلين: "يا قوم، يا قوم"، أمّا سيد الزمان والمكان صلى الله عليه وسلم فيقول: "يا أيها الناس"، وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تعزز هذا المعنى وتعضده، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧/٢١)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً" (وفي رواية: وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ) ^(٤٢)، وهذا غيض من فيض.

وبينما كان الإسلام يقرّر عالميته لم يزعم أنه "نظام عالمي"، بل ربما أثبت أنه نظامٌ عالميٌّ بما حققه فعلاً من نشاطات معنوية ومادية أكثر من أن يعرّضَ لزعم كهذا، أي إنّ الإسلام قدّم مقوّمات ورسائل ونشاطات متنوّعة من أجل الفرد والعائلة والمجتمع، وهي رسائل تتّفق وتتواءم مع طبيعة البشر، فصارت دليلاً على عالميته.

وبينما كان الإسلام يهدف إلى هذه الغاية بدأ فتناول الإنسان كُلاًّ بجوانبه الإيجابية والسلبية كلّها مثل: أحاسيسه ورغباته وشهواته وحقده وكرهه وغضبه ومحبته... ورسائله لم تتعارض على الإطلاق قطّ مع قيم الفطرة المعروفة، فبوسع الإنسان أن يجد في الإسلام كلّ شيء يشتهيهِ في دائرة المشروع، وحسب من يرغب ببلوغ الكمال أن يرجع إلى الإسلام ولا حاجة له إلى أي شيء من الرهبانية والبراهمانية والبوذية، وإن أشكل عليه أمرٌ في نظام عائلته وتربية أسرته وصلته بأقربائه فحسبه في ذلك الضوابط الإسلامية، وإن كان في مأزق اقتصادي عسير فله علاجٌ ناجع في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وفي تفسيرهما وبيانهما المتميز في اجتهادات السلف الصالح، وهي كذلك دواء لكلِّ داء...

أجل، إن الإسلام دواء لكلِّ داء، إنه دواء لكلِّ شيء بدءاً من المسائل المتعلقة بالحقائق اللاهوتية وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد العبودية، وصولاً إلى علاقتنا الأسرية وعلاقتنا الاجتماعية إنه دواء ناجع، ليس وراءه حاجةٌ لأيِّ شيء آخر.

إن الإسلام -رغم أنه ظهر في جزيرة العرب- سرعان ما انتشر في كلِّ من بخارى وسندآباد والصين وبرج هرقل والهند وأفريقيا، وامتد حتى مشارف بيزنطة، واستُحسِن وكُتِب له القبول، إنه لا يمكن بيان هذا وتفسيره إلا بعالمية رسائله. تأملوا، لقد دخل الإسلام بصوت مرشديه ونفحاتهم لا ياكراه سيوفهم أماكن كانت منبتاً لمئات النظريات العقائدية؛ فكما اطمأن بالإسلام الأتراك المفعمون بالحركة والنشاط، كذلك بعض الأمم المهيأة للموت قبل الموت دخلت الإسلام فأحست بالوجود الحقيقي.

فإذا كان ذاك الطابعان المختلفان عن بعضهما اختلافاً جذرياً قد اتَّحدا في القاسم المشترك الإسلام؛ فلا بدّ من البحث عن هذا الاتحاد في القواعد التي تقوم عليها عالمية الإسلام.

والعالم الغربي الذي اكتشف هذه الميزة يسعى منذ عصور كما يفعل الآن بكل ما أوتي من قوة ليمنع هذا التقدم عناداً ليس إلا، والحقيقة أن أوروبا عندما كانت غارقة في ظلمات القرون الوسطى كان الإسلام في عزِّ نهضته الحديثة في آسيا، ولو أن الكنيسة لم تتعصب ولم تلجأ في سبيل مواجهة الإسلام إلى الفلسفة اليونانية القديمة، ولم تنظر إليه بأحكام مُسبقة -كما أشار أحد المفكرين-؛ لما عاش العالم ما يعيشه اليوم من ظلمات حالكة، ولكنها توجهت إلى مفاهيم عصر الوثنية ولجأت إليها، ولا تزال تواصل ترمتها ذلك إلى الآن.

أجل، لا بد من البحث عن عالمية الإسلام في الأسس والمبادئ التي جاء بها للإنسانية: ماذا وعد المرأة والرجل والطفل؟ وما النظام الذي أقامه لمواجهة الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية؟ وكيف حلّ المشكلات البشرية، وقاومَ الرذائل التي كانت مستشريةً في المجتمع؟ وبم أوصى لتحقيق التوازن الدولي؟ وهكذا... أجل، إنكم حين تظلمون بدراسة كل هذه الأمور سترون أن للإسلام هويةً شموليةً تفوق كل الأنظمة، وترون أنه الدواء الناجع لكل داء، وعندئذٍ تقولون: "إن الإسلام دين عالمي حقاً".

وثمة أمرٌ لا ينبغي تجاوزه دون بيان، فهذا موضعه: إنَّ من الخطأ تقديم عالمية الإسلام من خلال القرآن فقط، وأرى وجوب البحث عنها أيضاً في السنة الصحيحة، واجتهادات الخلفاء الراشدين، وآراء السلف الصالح ودراساتها في ضوء ذلك.

نعم، إننا آمنّا دائماً بكفاءة الإسلام وكفايته. أجل، إنه رغم كل الأيديولوجيات التي تواجهنا لم نرتب في كفاءة القرآن والسنة قطّ، بل على العكس من ذلك حملنا في قلوبنا إيماناً بأن كل هذه الأيديولوجيات لا طاقة لها بمواجهة الإسلام، حتى إننا نؤمن إيماناً تاماً بأن من يرزحون تحت أغلال الشيوعية سيستيقظون يوماً ما على هذه الحقيقة... وحسبنا أن تتاح لنا الفرصة لتبليغ الإسلام وتمثيله.

إننا لا نخافُ من أيّ شيء ألبتة، لأننا نعلم أن الإسلام دين عالمي برسائله التي حملها، وفعالياته في كل ساحة تمسّ حياتنا

وتعطينا شخصياً واقتصادياً واجتماعياً وصناعياً وأسريراً وعسكرياً
ودولياً... إلخ؛ ونؤكد هذا، ونؤمن به، أليس في بقاء الإسلام بأسسه
المتجددة دائماً رغم جفاء أعدائه وغدر أصدقائه منذ أربعة عشر قرناً
دليل على عالميته؟

عناية الرسول ﷺ بأصحابه ﷺ

سؤال: ليتكم تحدثونا عن حبّ رسولنا ﷺ لأصحابه الكرام، وأسباب هذا الحبّ؟

الجواب: لقد عُني الرسل السابقون أيضاً بمنّ نصرّوهم، وبأممهم التي ساندتهم في خدمتهم ودعوتهم، فأحبّوهم وقربّوهم، وكيف لا وهم الذين لم يُسلموهم وإن في أحلك الظروف؟ غير أن ثمة فرقاً بين رسولنا ﷺ وغيره من الرسل ﷺ: عندما يدنو الأجل من نبي قبل خاتم الأنبياء يأتي آخر ويتولّى الأمر من بعده غالباً، أما بعد مفخرة الإنسانية ﷺ فقد تحمّل هذه الرسالة أولياء الأمة، وعلى رأسهم الصحابة الكرام ﷺ.

وهكذا كان ﷺ يحبّ أمته لتحملها هذه المهمة الجليلة... وكلمّا اقتضى الأمر صرّح بأصول هذه المحبة، ويذكرهم بقوله ﷺ: "تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"^(٤٣)، وأحياناً يوجّه القلوب إلى القرآن الكريم وأهل بيته، ويوصي

بملازمتها والتمسك بهما قائلاً: "إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ أَحَدْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ، وَعَثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي"^(٤٤)، ولهذا فإن العناية بآل البيت أنصار الكتاب والسنة بالجبلّة في ذلك العصر وتاليه كانت من باب التمسك بالدين، والحقيقة أن وراثة آل البيت لرسولنا ﷺ هي بأحد معانيها أسمى من كل أنواع الإرث.

وفي أمته أفراد هم ممثّلو روح النبوة، لقد صاحبوه وآمنوا به من أعماق قلوبهم، وأسلموا له، ولم يتخلوا عنه قط ولو لحظة واحدة، فهم جميعاً رأوا نور النبوة، وترعرعوا في لآلاء أجوائها وغلافه، فتميزوا عنّا كثيراً من هذا الوجه، ولا ريب أن سَيِّمِيَّزُ من اجتمع به وشاهد أحواله كلها، وشهد الوحي وهو يهطل عليه من السماء، لذا طبعي أن يُعنى بهم رسولنا ﷺ أيما عناية، ويفاخر بهم، حتى إنه قال ﷺ: "لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ"^(٤٥)، إنه وهو يفعل هذا يرشد في المقام الأول كل من بعده وكل من سيخدم الدين ويناضل من أجله حتى يوم القيامة ليضعوا أصحابه ﷺ في مقام الصدارة.

أجل، لقد كان ﷺ إنسان الوفاء، كان حتى لحاقه بربه يتنفس وفاءً لمن بذلوا أرواحهم وضحوها بها في سبيل دعوته التي حملها، لقد تكاملوا معه وانصهروا في بوتقته حتى إنه لما حان اللحاق بالرفيق الأعلى - وهذا ما كان يريد - نَشَجَ يبكي على فراقهم، وما كان

(٤٤) صحيح مسلم: فضائل الصحابة، ٣٦؛ سنن الترمذي، المناقب، ٣١. (واللفظ للترمذي).

(٤٥) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، ٤٥؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢١-٢٢٢.

منه إلا أن قال لهم: "يا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ نَبَأَنِي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُ لَمْ يُعَمَّرْ نَبِيٌّ إِلَّا نِصْفَ عُمُرِ الَّذِي يَلِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنِّي لَأَظُنُّ أَنِّي يُوشِكُ أَنْ أَدْعَى فَأَجِيبَ، وَإِنِّي مَسْؤُولٌ، وَإِنكُمْ مَسْؤُولُونَ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟" قَالُوا: "نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَجَاهَدْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا"^(٤٦)، فكل وفاء عرفناه منه ﷺ تعلمناه.

إنه لم يكن وفيًا للبشر فحسب، بل كان مفعماً بالوفاء حتى للحجر والتراب، يشتاقي إلى مكة ولا ينقطع عن "قباء"، لأنه أول منزل فتح له صدره بعد الهجرة والعناء، وهو الذي قيل له فيه: "ههنا المنزل يا رسول الله"، فكان رسول الله ﷺ يزور قباء كل سبت حتى لكانه يقول له: "لقد ضيقتني وأكرمتني"، وكان يزور أحدًا أيضًا، ذلك المكان الذي قال فيه: "هَذَا جَبَلٌ يُجِبُّنَا وَنُجِبُّهُ"^(٤٧)، أي هو المكان المبارك الذي نال نصيبه من حب رسولنا الحبيب، وكان يزور البقيع مقبرة المدينة، كلا - أستغفر الله - إنه ليس بمقبرة، بل هو نُزُلُ الصحابة الكرام انتظارًا للآخرة... وما أكثر الأمثلة عن وفاء إنسان الوفاء ﷺ...

لذلك نجد كل من يطرق هذا الموضوع، صديقًا كان أم عدوًّا، يقول: لم تأتِ ولن تأتِي جماعة تتعلق بقائدها كما كان أصحاب محمد ﷺ، ولم يأت ولن يأتِي قائد يتعلّق بتابعيه كما كان محمد ﷺ. أجل، وهل يستغرب أن يُصطفى الأوصياء لمصطفى؟

(٤٦) الطبراني: المعجم الكبير، ١٨٠/٣.

(٤٧) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٤١١، صحيح مسلم، الحج، ٤٦٢.

نعم، إن الصحابة الكرام أناس أُسبِغ عليهم الإحسان واللفظ بعد مرحلة معينة بما قدموا من عبادات وكفاح وعزم وجهد، أما رسولنا مفخرة الإنسانية صلوات ربي وسلامه عليه فقد خطا أولى خطواته إلى الدنيا نبياً، فقد كانت حياته قبل البعثة حتى طفولته تعزز ما سيكون لاحقاً؛ من ذلك مثلاً أنه كان مثال العفة في العصر الجاهلي يوم أن لم تكن العفة والطهر والعفاف والأمانة شيئاً ذا بال؛ فإذا ما قيل "العفيف" في أي مجلس تبادر إلى الأذهان رسول الله ﷺ، إنه لم يدع أحداً يلمزه في كرامته أو عفته قط، ولم يُتَّح لأحدِ الفرصة ليفعل ذلك، وكان يفيض حياءً من رأسه إلى أخمص قدميه، لقد رعى الأمانة حق الرعاية حتى إنه عُرف في الجاهلية بلقب "الأمين"، لم يمر الكذب بسمائه قط... وما خدع أحداً ألبتة.

وقد غدت صفاته تلك قواعد رسالته وأسسها، فهذه الرسالة سبَّني على تلك الأسس، انظروا! لقد اتهمه مشركو مكة ببعض الصفات لإنكار رسالته السامية تلك، وقالوا عنه ما لا يُقال لمثله ولا يصدِّقه أحد: شاعر وكاهن ومجنون، لكنهم لم يجروا أن يتَّهموه بالكذب أو الفُحش، وعجزوا أن يصِّموه بخيانة الأمانة وخلف الوعد، وبدهيِّ أنهم أنفسهم لم يصدقوا تلك الأكاذيب التي رموه بها. أجل، لقد جاء طاهراً مطهَّراً، وعاش كذلك، وتربَّع في قلوبنا كذلك.

وكما أشرنا آنفاً كان ﷺ إنساناً مصطفىً أدركنا وجودنا بوجوده، ومن اتبعه اصطفاهم الله له وجعلهم أمته وأنصاره وصحابته، وهذا يعني أنكم لو بحثتم عن أبي بكرٍ آخر من بعده فلن تعثروا عليه أبداً،

ولن تجدوا عمر عينه، ولا عثمان نفسه، ولا علياً ذاته ﷺ جميعاً؛ غير أن ثمة كثيراً على قدم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، سيأتون من بعدهم، ويستمرون إلى القيامة؛ ليحملوا المهمة التي حملوها نفسها. وإليكم مثلاً صغيراً فحسب: إن اسم خالد بن الوليد ﷺ لم يُطرح لقيادة الجيش في غزوة مؤتة؛ فما زال حديث العهد بالإسلام، أسلم قبل نحو شهرين، وقد أمر رسولنا ﷺ زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، فعبد الله بن رواحة ﷺ بهذا الترتيب، فاستشهدوا واحداً تلو آخر، فنعاهم رسول الله ﷺ قبل أن يأتيه خبرهم فقال وعيناه تذر فان: "أَخَذَ الرَّأْيَةَ زَيْدٌ، فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرُ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" (٤٨).

وذكر المؤرخون أن جيش المسلمين نحو ثلاثة آلاف جندي، وجيش البيزنطيين نحو مائة ألف مقاتل، فكان على كل مجاهد أن يقاتل ثلاثين ونيفاً من البيزنطيين، ودارت الحرب دون هوادة ستة أيام، وفي اليوم السادس جاء القدر باستشهاد القادة الثلاثة تبعاً، وفي حمأة المعركة التقط صحابي ضعيفٌ نحيلٌ اللواء، ونظر حوله فرأى خالدًا ﷺ فقال له: "خذ اللواء يا أبا سليمان!"، فقال خالد: "لا أخذه، أنت أحقّ به"، فقال هو بدوره: "خذه أيها الرجل! والله ما أخذته إلا لك!" (٤٩)، فأخذه خالد فكانت تلك الليلة ليلة خالد.

(٤٨) صحيح البخاري، المغازي، ٤٥.

(٤٩) الواقدي، المغازي، ٧٦٣/٢.

لقد دوَّخَ العدو وشوَّش ذهنه بإستراتيجيات جديدة؛ فجعل الميسرة ميمنة والميمنة ميسرة والقلب مؤخِّرة، وطبق إستراتيجيات أخرى في مجال آخر؛ إذ أمر بقرع الطبول فظنَّ العدو أن مددًا قدم من المدينة، فدبَّ الخوف والرهبة والهرج والمرج في قلوبهم. نعم، لقد فعل كل هذا ليوحى لهم الليل بأنَّ مددًا قادمٌ من بعيد يثير الغبار والضوضاء والجلبة بمقدمه، ولما طلع الفجر فوجئَ العدو بجيشٍ كثير الرايات والألوية يطير صقوره هنا وهناك في حركة وانفعال.

وهكذا ذهبت بهم الظنون أن مددًا جاء من المدينة، ووقعوا في خَيْصَ بَيْصَ، وتحيروا أيما تحيرٍ لا سيما حينما ارتفعت الشمس، ورأوا أنهم أمام أناس غير أولئك الذين كانوا يحاربونهم منذ بضعة أيام، وشُنت الهجمات تباَعًا على قلب جيش العدو وكانت قواه المعنوية قد انهارت انهيارًا شديدًا، وتلك هي الأمارات الأولى لتحوُّل الهزيمة إلى نصر.

ناشدتكم الله! كيف بلغ خالد ﷺ هذا المستوى في شهرين اثنين، وحقق كلَّ هذه الأمور؟ وعاد خالد ﷺ بالجيش إلى المدينة سليمًا، أما البيزنطيون فجبنوا عن أن يتعقبوا المسلمين، وما تجرؤوا على ذلك.

والآن أجيوني: ألم يكن أصحاب النبي المصطفى مصطفىين أيضًا؟ أجل، لقد عشقوا هذا الأمر بصدقٍ نابع من أعماقهم وأفئدتهم؛ ولذلك استحقوا شفاعته ومحبه ﷺ، وسيقوم إن شاء الله جيلنا الوارث للدعوة المحمدية، ليبذل الجهد المفروض من أجل

حمل تلك الأمانة المقدسة ووضعها في مكانها اللائق دون أن يشعر
ببأس أو قنوط أو سأم أو ملل أو ضعف ولو عرضت له ألوان من
المعاناة والمشاق، فيستحقّ بذلك محبة سيد الأنبياء ﷺ كالصحابة
الكرام تماماً.

اللهم اهدنا للسير على هذا الطريق المبارك، ولا تحرمنا
من الإخلاص فيه ولو لحظة واحدة! اللهم آمين.

الاستعداد لحضور مجالس العلماء

سؤال: بماذا ينبغي أن نستعد قلبياً وروحياً لتحقيق لنا الفائدة القصوى من مجالس العلماء؟

الجواب: يمكن تناول هذه المسألة من عدة زوايا:

١- لا بد أولاً من الثقة التامة بهم حتى تتسنى الاستفادة من مجالسهم؛ وإلا استحال تحصيل أي شيء مطلقاً من حضور مجالسهم بكبر وغرور وخيلاء وهوس العظمة كمن ينظر إلى كل إنسان وكل شيء من عل، وتتعدّر أيضاً استفادة من اضطرّ لحضور مجلس علم وهو يحدث نفسه قائلاً: "هذا مضيعة للوقت، ولكن ماذا عساي أن أفعل، لم أستطع أن أكسر خاطر فلان..."

أجل، إن القرآن الكريم يقول وهو يقصّ هذه الحقيقة الكلية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٦/٧). أجل، إن المتكبرين والمغرورين لن يستفيدوا من آيات وجود الله ووحدانيته ولو انهمرت على الأرض زخاً زخاً، وقد أكد رسول

الله ﷻ هذه الحقيقة فقال: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ"^(٥٠)؛ وقال فيما يرويه عن ربه في حديثٍ قدسيٍّ: قَالَ اللهُ ﷻ: "الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَدَفْتُهُ فِي النَّارِ"^(٥١). أجل، إن المبتلى بالكبر والغرور، أي من يُنازع ربه في "رداء" الكبرياء و"إزار" العظمة يستحيل أن يُدرك الإيمان أو يستفيد من حقائقه؛ لأنه بمقتضى الأصل ترفض حقيقة العظمة والكبرياء لله تعالى هذه الظلية المتغترسة لدى الإنسان، وهذا المتغترس لا يحصل على نصيبه الكامل من الإيمان، ولا يستطيع دخول الجنة دار المؤمنين.

٢- تجاوز الحد أيضًا يحول دون الاستفادة التامة من هذه المجالس؛ وكما أن تجاوز الحد يكون بظلم الناس قد يقع أيضًا في وضع الإنسان نفسه موضع الأولياء المقربين، بل قد يبلغ به الأمر أبعد من ذلك، فينزل بأولئك الأولياء إلى مستواه هو لا لشيء سوى أنه لم يرق إلى مراتبهم، ولأنه يجهل الأذواق والأحوال، أي إن إنكاره هذه الأمور بقوله: "هم رجال ونحن رجال، والكشف والكرامة والذوق وغيرها أشياء يمكن تفسيرها وتأويلها على نحو ما" يحرمه من الفائدة، والحقيقة أن فهمًا كهذا في يومنا هذا مرضٌ كالإيدز في خطورته وفتكه؛ فالإنسان الذي يحطُّ من مرتبة الإمام الأعظم والشيخ الجيلاني والإمام الرباني وغيرهم من العلماء

(٥٠) صحيح مسلم، الإيمان، ٤١٤٧ سنن الترمذي، البر، ٦١.

(٥١) سنن أبي داود، اللباس، ٢٧.

والأولياء، وينزل بهم إلى مستواه يستحيل أن يستفيد من فيوضاتهم ويؤمنهم وبركاتهم.

ثم إن هذا الفكر يحول دون السير والوصول إلى الدرجات العلى؛ لأن إنساناً كهذا ليس أمامه مُثُلٌ سامية يحتذي حذوها حتى يسعى ليدركها ويصل إلى درجتها، وبعبارة أوضح: إن من يحدثون أنفسهم قائلين: "من الإمام الأعظم؟ لو كان بيننا لغلبتة بالحجة" أو "من الإمام الرباني، ومن الشيخ الجيلاني؟" ... إن إنساناً كهذا يتحوّل ذهنه إلى "أنا" ويدور كلُّ شيء حوله، ذلك أنه ليست لديه غاية سامية، فهذه النوعية من البشر التي تنسج كل شيء على منوال أنانيتها يستحيل أن تتجاوز ذاتها، أو أن ترى أي شيء سوى نفسها، إذًا بوسعكم أن تُسمّوا من ينسحق تحت وطأة نفسه من البشر "ضحية النفس"، ومن يخضع لتأثير ضربات أنانيته القاتلة "ضحية الأنانية".

دَعُوكُمْ من استفادة أمثال هؤلاء من مجلس هذا أو ذاك؛ بل إنه لا يمكن توقُّع استفادتهم من مجلس حتى سلطان السلاطين ومفخرة الإنسانية محمد المصطفى ﷺ، وإن أنوار الحق تعالى القدسية لا تنكشف لهم، حتى وإن انكشفت على سبيل المحال لتعذر عليهم الاستفادة منها، بل إن الطريق المؤدية إلى الفيض الأنور لو لامست حتى قلوبهم لما استطاعوا أن يخطوا ولو خطوة واحدة فيها.

أجل، إن العبارة التركبية الشائعة "آثار الفيوضات على قدر الاستعدادات" تُكتب بماء الذهب، فاستفادة أي إنسان من آثار الفيض رهْنٌ باستعداده وطاقته.

٣- يحول الانحراف دون الاستفادة من مثل تلك المجالس أيضاً، والانحراف يعني النظرة السطحية وقصور النظر واستمرار التأثير بوجهات النظر السابقة أو العقليات المتهالكة، فكما قال بديع الزمان في كتابه المثنوي العربي النوري: "إِنْ مَنْ يَرَى قَشْرَ بِيضَةٍ انْقَشَعَتْ عَنْ طَاوُوسٍ تَكْمَلُ وَطَارَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَتَحَرَّى مَا يَسْمَعُ مِنْ كِمَالَاتِ ذَلِكَ الطَّيْرِ الطَّائِرِ فِي فِضَاءِ الْعَالَمِ فِي تِلْكَ الْقَشْرَةِ الْيَابِسَةِ، لَا بَدَّ أَنْ يَغَالِطَ نَفْسَهُ أَوْ يَكْذِبَ"^(٥٢).

أجل، هذا انحراف وخطأ فادح جداً، ولعلّ هذا هو السبب الأهم لعجز معاصري مفخرة الإنسانية ﷺ أمثال أبي جهل وأبي لهب ومن جاؤوا بعدهم عن الاستفادة منه ﷺ؛ فقد جاء برسالة يغمر نورها الإنسانية جمعاء، وأرشد الإنسانية التي تتخبّط في مستنقع غائرٍ إلى حقيقتها وماهيتها الحقّة، وأنار وجه الكون بالنور الذي علّمنا به علّة الخلق الحقيقية، ويبيّن لنا أن المستقبل ليس عبارة عن ظلمات كما ادعى الملحدون، وأشربَ قلوبنا مئاتِ وآلافِ الحقائق؛ لكنهم وا أسفاه حُجبت عنهم تلك الحقائق الكلية، وما استطاعوا رؤيتها، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ ۗ أَهْمُ يَفْسُمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (سورة الزُخْرُفِ: ٤٣/٣١-٣٢).

(٥٢) بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري، حباب من عُمان القرآن الكريم، ص ١٨٢-١٨٣.

والأستاذ بديع الزمان ممن حلّ بهم ما حلّ من تلك النظرات المنحرفة في عصرنا هذا، وما ضرّه ذلك شيئاً، بل نزل الضرر بمن ينظرون إليه تلك النظرة وقيمونه في ضوئها؛ إنه ذلك الرجل الذي لما ملك أوقيتين من العسل أهدي واحدةً لإخوانه تكفيهم قرابة شهر، وإذا بها تنفد خلال ثلاثة أيام، فاقسم معهم أوقيته الثانية أيضاً وقال: "لقد نفذ نصيبهم من العسل في يومين أو ثلاثة لما أظهره من كرم وإيثار فيما بينهم، في حين أنني بتّ أتقوّت ما كنت أملكه من العسل وأقتصد، فتناولته طوال شهرَي شعبان ورمضان، فضلاً عن أنه أصبح -والله الحمد- سبباً لثواب عظيم، إذ أعطيتُ كلّ واحد من أولئك الإخوة ملعقةً واحدةً منه وقت الإفطار"^(٥٣)، إنه الإنسان الذي يقول: "إن هذه السترة (الجاكيت) قد اشتريتها مستعملةً قبل سبع سنوات، وكفّت أربع ليرات ونصف الليرة مصروفَ خمس سنوات مضت للملابس والحذاء والجوارب، فلقد كفتني البركة والاقتصاد والرحمة الإلهية"^(٥٤)، إنه الإنسان الذي كان يسدّ رمقه بماء حساء الشّعريّة الذي يحتوي على بضع حبات منها، بينما يعطي حبات الشعيرة للنملات الجائعة، وهو الذي يقول: "البركة في الاقتصاد، أما الإسراف فهو الطريق لانقطاع البركة"^(٥٥)؛ وجعل هذا دستور حياته.

لقد كان على هذه الهيئة والصورة، لكن إحدى الصحف قصيرة النظر كتبت ذات يوم تقول فيه: "لما اقتحمت الشرطة بيتَ بديع

(٥٣) بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الخامسة، ص ١٩٧-١٩٨.

(٥٤) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب السادس عشر، ص ٨٦.

(٥٥) بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الأولى، ص ١٩١.

الزمان عُثر على كثيرٍ من قشر البيض في كيسٍ، ولو أن هذا الخبر صحيح فالأمر طبيعيٌ للغاية حسب أسلوب تفكير بديع الزمان؛ فهو فعل ذلك شكراً للدجاجة التي تبيض، والبيضة التي تفقس فتأتي منها الدجاجة، ناشدتكُم الله! أليس هذا طبيعياً من إنسان كان يقول: "كان للدجاجة التي تمنحني البيض يوماً فرخة عمرها ما بين خمسة إلى ستة أشهر، بدأت تبيض عندما انقطعت أمها عن البيض، لم تتركني يوماً من أيام الشتاء دون بيض، إن هذه الحيوانات مباركة..."^(٥٦)، وهكذا كان ينظر حتى إلى الحيوانات.

في حياتي كلها لم أرَ كثيرين يقدرون حتى البشر الذين هم أشرف المخلوقات مثل تقديره، انظروا إليه؛ إنه يعدّ دجاجه مباركاً، فهو إنسان في غاية الدقة والرقة حتى إنه يقول: "لو همّوا ينتزعون ريشةً من دجاجتي، لقلتُ لهم: عاقبوني بالحبس شهراً، ولكن لا تمسوا ريش دجاجتي!".

وربما كان هذا الإنسان المزين بتلك الأوصاف يحفظ قشر ذلك البيض في كيسٍ صغيرٍ كي يدفنه في مكان ما، ولكن انظروا إلى تلك النظرة القاصرة والفكر المعوج الذي يفسّر الحدّث قائلًا: "إنه يتظاهر بأنه زاهد في الدنيا، غير أن العثور على أوقية من العسل، وكثير من قشر البيض في بيته يعني أنه يخدعنا..."; وهكذا حجّبهم مثل هذا الانحراف والتمسك بصغائر الأمور من أن يستفيدوا من بديع الزمان ومؤلّفاته.

أجل، أولئك الذين انحرفوا فكريًا وحسبيًا ليس لهم أن يستفيدوا من مفخرة الإنسانية ﷺ ولا من الإمام الغزالي والشيخ الجيلاني ومولانا خالد البغدادي وبديع الزمان وأمثالهم، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يتخلّص من المشاعر المنحرفة والأحكام المسبقة والكبر والعجب بالذات، ومن كل ضروب التعدي والتجاوز حتى تتاح له الاستفادة من هؤلاء العظام، ويَجِد ما يستمع إليه صدَى في قلبه وعقله.

تأملوا عصر السعادة: لقد كان أبو جهل إنسانًا عاقلًا مثل خالد بن الوليد ﷺ على الأقل، فكلاهما من بني مخزوم، وهما أبناء عمومة، غير أن أحدهما انساق وراء كِبْره وغروره وانحرافه، فتردّى أسفل السافلين وبقيَ على الجانب الآخر من الباب، أما الثاني فقد ارتقى إلى "أوج كمال الإنسانية" بتواضعه ومحوه وفنائه، وأخذ مكانه إثر الخلفاء الراشدين، وتسامى إلى أعلى عليين.

إذا إن الاستفادة التامة من مجالس العظام تتحقق بالإيمان أولاً، ثم بتجنّب كل ضروب التجاوز، وبالتجافي عن كل أنواع الانحراف.

أولمبياد العلوم

سؤال: ما رأيكم بمشاركة بعض المدارس من مرحلة التعليم المتوسط وفوزها في المسابقات الأولمبية للمشاريع والعلوم التي تنظم محليًا ودوليًا في السنوات الأخيرة؟

الجواب: من المهم جدًا أن تتقدّم مدارس تمثّل الأفكار والآراء المنبثقة من قلب هذه الأمة المخترم بخميرتها للمشاركة في مسابقات الأولمبياد العلمية أو مسابقات المشاريع التي تنظم محليًا ودوليًا؛ إذ إنّ على مَنْ سلكوا الطريق منفتحين على المستقبل عازمين على احتضانه بكل ما فيه ألا يغفلوا هذه الحقيقة ولو لحظة واحدة، لا سيما أن هذه المسألة لم تُدرج حتى اليوم في سياسة الدولة، فصار الاهتمام بهذا الأمر والعناية به مطلقًا واجبًا مهمًّا يقع على عاتق من يحبّ وطنه وأمته، ويمضي بها نحو المستقبل أفرادًا وجماعات، ولو أنّ رجائي يُسمع لرجوت المسؤولين قائلًا: "هلا تجعلون هذا الأمر من سياسة الدولة"، لست أدري هل يوحى إليكم مثل هذا الرأي بشيء يدلّ على أهمية المسألة؟

ويمكن تأصيل هذه المسألة شرعاً: لقد لقي هذا الضرب من
 الفعاليات العلمية التشجيع دائماً، سواء في عصر السعادة كما
 في بعض الوقائع الفردية، أم في عصور غدا فيها الفقه مدارس
 وتطور إلى مذاهب، وهذا طبعاً وفقاً لظروف كل فترة، وقد تابع
 الجميع باهتمام وفي مقدمتهم السلاطين والخلفاء تلك التطورات
 التي حدثت في شتى فروع العلم، ومُنحت المكافآت للمتفوق منها،
 وفي الواقع أليست تلك هي محصلات هذا المفهوم الذي جعلنا
 أصحاب الكلمة عالمياً على مدى قرون طويلة؟

وإن هناك شباباً قادرًا على حماية ذاته وتحصينه شخصيته دون
 السقوط في عقدة الدونية، يشاطر أمته الفكر نفسه والروح عينها
 بل يشعر معها المشاعر والأحاسيس ذاتها ويعيشها، وإن مشاركته
 في الأولمبيادات العلمية ونجاحه فيها محلياً ودولياً ممثلاً لبلادنا له
 أهمية كبيرة جداً عند العالم أجمع لا سيما أمتنا؛ ذلك أن عصوراً
 مرت تسود فيها دعاية تزعم أنه "لا يخرج من رحم العالم الإسلامي
 عالم"، وهو ما كان يصيبنا بالشلل عادةً، بل أثرت فينا هذه الدعاية
 حتى النخاع، حتى إنني كدتُ أصدّقها رغم أنني مفعّم بالأمل داعٍ
 إليه، لطالما تحدثتُ عنه سنوات طويلة. أجل، لقد قوّضت وهزمت
 هذه النجاحات التي تحققت بلطف الله الدعاية المذكورة، تلك
 الدعاية التي استقرّت محلياً ودولياً ولدى الصديق والعدوّ.

والحقيقة أن الغرب الذي يسحقنا مادياً بقوّته وقدرته منذ عصور
 يسحقنا نفسياً أيضاً بهذا النوع من الدعايات، فتُسيطر علينا جميعاً في

هذا المقام عقدة الدوتية، تسيطر علينا لأنه لم تكن تلوح في أفقنا ولو أماره فجر كاذب يحول دون هذا، غير أنه ليس الأمر كما كان، إني أظن أننا سستمكن -بعناية الله تعالى- من تحقيق نجاحاتٍ أعظم في مشاريع أكبر وأكبر في السنوات المقبلة، وذلك بفضل الاطمئنان الذي نعيشه إثر تخلصنا من هذا الانسحاق.

وثمة فائدةٌ محلّيةٌ لهذه النجاحات: منذ سنوات طويلة كان بعضهم يُطلق على تلك المدارس اسم "الكتاتيب" -أعظمُ بشأنِ الكتاتيب وأنعم-، إلا أنّ هذه المدارس أسهمت في تقديم كثير من الأفكار النافعة لبلادنا وأمتنا، منها: سبُرُ أغوار الكون -انطلاقاً من حقيقة أن "القرآن يقرأ الكونَ والكونُ يقرأ القرآن"-، والوقوفُ على الحوادث الطبيعية التي تجري في العالم، واستقراء الأشياء ودراستها بعمق، وبلوغُ الأفق الذي أشار إليه القرآن على لسان النبي وتقديمه لخدمة البشرية؛ ثم إنّ تحقُّق هذا الهدف، بل بلوغ قمته أي تحقيق النجاح في المسابقات العالمية قد غير ما كان يُقال عن تلك المدارس، وجعلها موضع اهتمام الناس من القاعدة إلى القمّة؛ فالحمد والثناء كلّهُ لله الذي منّ علينا بتلك النعم.

هذا وقد طمأنّت تلك النجاحات من يدعمون بإخلاص تلك المدارس اطمئناناً بالغاً، فلقد اطمأنّوا لما فعلوا وهم يتحدثون مع الناس، وصاروا يفخرون بالانتساب إليها وبينما هم في دعمهم الصادق مستمرّون حتى اليوم بأضعاف مضاعفة صاروا يتخذون

من هذه النجاحات وسيلةً للحصول على دعم الآخرين للمدارس، وبدؤوا يستخدمون هذه الوسيلة في كل المحافل.

وعندما تتحقّق هذه الأمور جميعاً فلنعلم أن تلك النجاحات التي تحقّقت، والمستوى الذي بلغناه ليس هو الهدف أو نقطة النهاية، إننا نعدّ تهيّطَ الهَمَمِ إنمّا؛ ولهذا فما تُنجزونه بطريقةٍ بدائيةٍ اليوم هو أرضية وبنية أساسية لمشاريع ستُنجز بحرفيّة في المستقبل إن شاء الله، ستؤسّس في بلادنا - بإذن الله تعالى - قريباً بدائل وكالة "ناسا" (NASA) الأمريكية التي يغطيها العالم أجمع، والأيام التي ستنسب فيها براءات الاختراع للعلماء المسلمين قريبة آتية لا محالة.

أمر آخر لا بدّ من تذكره دائماً، وهو أن ضبط مؤشّر القلب ضبطاً جيّداً في كل مرحلة من ألفتها إلى يائها، ومن البداية حتى النهاية وإخلاص النية شرط بل فرض، قلنا من الألف إلى الياء، أي بدءاً من الطلاب الحاصلين على ترتيب في هذه المسابقات حتى المدرسين الذين ينشئونهم، وأولئك الذين لا يرضون بالدعم المادّي والمعنوي، وجميع القلوب المشجّعة من الرجال والنساء الذين يفرحون بهذه النجاحات وليس لهم أيّ دور... أجل، إن على هؤلاء جميعاً أن يضبطوا مؤشرات قلوبهم جيّداً، وأن يشكروا الله "شكراً مطلقاً" دائماً؛ فلا بدّ أن يشكر كلُّ إنسان ربّه كما يفعل طبعاً بعد كل نجاح يحققه؛ يشكره وجلاً مستهدياً بالبيان الإلهي السماوي: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٧/١٤) وأن يسجد شكراً لله، ويتوجّه إلى الله تعالى متضرّعا متحرّقا بنشوة الشعور

بحقيقة التوحيد في ذاته كلها؛ لأننا نعلم ونؤمن إيماناً قاطعاً بأن كل شيءٍ نحظى به إنما هو منه تعالى.

ولنختم هذا الموضوع بتحديد هدف: ألا ليت بعض الدراسات تبحث كلاً مرضي السرطان والإيدز! أجل، فالعثور على علاج لهذين المرضين الفتاكين الخبيثين يمثل خدمةً عظيمةً للبشرية جمعاء، حتى إنه يمكن القول بأنه إذا ما اتحدت مائة مدرسة بطلابها ومدرسيها وبطاقاتها المادية، وصارت دواءً لداء السرطان، فأحيت نفساً واحدةً فقط، فلعل الله يُدخل كل هؤلاء المؤمنين الجنة، ناشدكم الله: لو أنكم كنتم ذلك المريض، وفتح لكم باب الجنة في الآخرة، ألا تقولون: "يا ربي لا أريد الدخول حتى يدخل هؤلاء الذين أنقذوني من مرضي"؟

شاهدت في برنامج على التلفاز قبل فترة سيدهً أصابته إبرة ملوثة بفيروس الإيدز، إنني لا أملك مشاعري كلما لاح لي هذا المشهد رغم مرور شهرين أو ثلاثة عليه، وأجدني لا أتمالك نفسي ولا دموعي، فقد كانت السيدة تبكي؛ فهي سيده عفيفة، وهذا المرض ينتقل بالعدوى عن طريق الزنا كما شاع وذاع، وربما كانت تلك المرأة تبكي وتموت المأخضية أن يُظنَّ بها هذا.

أجل، على المتطوعين من أهل العلم والمعرفة أن يبنوا دراساتهم على هذا الفكر والمعتقد عملاً بقوله ﷺ: "خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ" (٥٧).

وضعنا المؤسف وسُبل الخلاص منه

سؤال: ماذا عن سبل الخلاص من الوضع البائس الذي نعيشه منذ قرنين أو ثلاثة؟

الجواب: لقد عرضت لأمتنا مصائب كبرى منذ نحو ثلاثة قرون على فترات تترى كل أربعين أو خمسين سنة. أجل، منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادي حتى اليوم والمصائب تنهال علينا، وكأن الله ﷻ يقول لنا على لسان الحوادث: "تنبهوا، واستفيقوا، وعودوا إلى هويتكم الأم!"؛ يقول هذا ليؤدّبنا ونحن لا نستوعبُ الدرس اللازم جيّدًا ولا نعتبر؛ لذلك ما زلنا نرتكب أخطاء تنجم عنها مثل تلك المصائب والبلايا، وكأننا ندعو الله بأن يرسل علينا مصائب أخرى.

أجل، لقد قلنا: إن المصائب تتوالى، من ذلك أن البيوت هُدمت في الحرب الروسية العثمانية (حرب ٩٣)، وخربت الدور والأنزال، ونُهبت البيوت والمنازل وشنق الجنود الروس الجنود الأتراك، وعلقوا كل واحد على شجرة، فانكسرت الأمة وانقصم ظهرها... ثم اندلعت حرب البلقان... ثم الحرب العالمية الأولى، واضطر جنودنا

إلى القتال في كل الجبهات... اضطروا لذلك، فذهب معظمهم إلى جبهات مختلفة دون عودة، وصارت كل هذه الأحداث قضايا تُطرق في الشعر والمراثي والأناشيد. والأبيات التالية غيض من فيض:

هذا هو اليمَنُ طريقه سهلٌ مُعشِبُ
ذاهبُهُ لا يرجعُ يا تُرى ما السببُ؟

وقد ذكرنا أنّ هذه الحوادث المؤلمة هي في واقع الأمر مصائب من الله بها علينا حتى نعود إلى ذاتنا، وفيها بعدٌ من الإحسان للقادرين على الانبعاث من غفلتهم، أمّا إذا ما فتئنا ندور في حلقات تلك الدائرة الفاسدة ولم نعتبر بهذه المصائب كما ينبغي فلا شكّ أنها ستستمرّ، بل ستحلّ بنا أضعافاً مضاعفة، ولن ترتفع عنّا؛ وهذا يعني أن هذا المستنقع قدّر لنا فترةً أخرى حتى نكون بين مصيبتين: نفاق المنافقين منا وضرر الأعداء المعتدين من غيرنا، لكننا إذا ما أفقنا وتوحّدنا مع روحنا وجوهرنا وعدنا إلى ذاتيتنا، فإن الله القادر على كل شيء سيهدينا سبيل السعادة، لتتوجّه إليها ونسير فيها.

هل نحنُ وحدنا دون سوانا عرضةً لهذا الضرب من المصائب؟ لا. أبداً، انظروا إلى سائر بلاد العالم الإسلامي سترون المشهد نفسه، لذلك يمكن القول: إنه قدّر جامع للعالم الإسلامي إنّه لا مكانة للدول الإسلامية بين الدول في هذا العصر، ولا وزن لها في التوازنات الدولية. أجل، لقد تشرذم العالم الإسلامي في هذا العصر وصار لُقيماتٍ سائغة، بل جعل هكذا، فكثير من هذه الدول اليوم صارت مسرحاً لأنواع شتى من الظلم لا يتخيلها عقل، علماً أننا

لم نكن هكذا بالأمس القريب... لم نكن هكذا، لَمَّا هَمَّ الفرنسيون بعرض مسرحية "فولتير" المسيئة لسيدنا رسول الله ﷺ، أنذرهم برسالة ذلك الذي يسميه الغرب "السلطان الأحمر" عبد الحميد خان الثاني -جعل الله الجنة مثواه-، فُرِعت فوراً من على خشبة المسرح وكانت قد بيعت تذاكرها؛ ثم هَمَّ الإنجليز بعرضها فأنذرهم أيضاً، فاضطروا لإلغاء العرض، جرت كل هذه الأمور طبعاً في فترة كان الغرب فيها يسمي الدولة العثمانية "الرجل المريض"، وهذا أمر له مغزى كبير.

والآن يا تُرى ما الحلّ وما السبيل للتخلص من كل هذا؟ إن أردنا أن تكون لنا الكلمة من جديد في السياسة العالمية وفي إدارتها، ونرتقي إلى مستوى أمة كلمتها نافذة، فلدينا أمر أو اثنان دلت عليهما إحدى الآيات الكريمة في حديثها عن هذا الموضوع، يقول الله ﷻ لسيدنا محمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٣/٨)؛ ففي هذه الآية أمران يسترعيان الانتباه، ويمنعان العذاب:

الأول: وجود سيدنا رسول الله ﷺ ذاتاً وروحاً؛ وقد وفى الله تعالى بوعدده هذا في عصر الصحابة الكرام ورسول الله ﷺ فيهم جسداً وذاتاً، أي إنه لم تحل بأتمه صلوات ربي وسلامه عليه في عصر السعادة تلك المصائب والابتلاءات السماوية والأرضية التي حلت بقوم نوح ولوط وصالح وغيرهم من الرسل والأنبياء ﷺ.

والآن ليس بيننا سيدنا رسول الله ﷺ بجسده، فجسده غدا في عالم البرزخ، وكل مخلوق فانٍ، غير أننا إن أحييناه دائماً في قلوبنا

وأفئدتنا أمكننا سدّ تلك الفجوة؛ لذلك يمكننا أن نستفيد من الحكم المذكور في الآية برفع العذاب لوجوده المعنوي بيننا ﷺ.

الثاني: الاستغفار وملازمته... أجل، إنّ سادتنا الذين كانوا لنا المرشد والدليل بأقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم وسلوكهم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان حتى اليوم وفي مقدمتهم سيد الأنبياء محمد ﷺ لزموا الاستغفار وربما لم تكن لهم ذنوب؛ فقد كان رسول الله ﷺ مثلاً يستغفر في اليوم سبعين مرة أو مائة مرة على اختلاف الروايات^(٥٨)، وكان الصحابة الكرام الذين اتبعوه يتوجهون إلى الله فوراً يستغفرونه مما قارفوه أو ظنوا أنهم قارفوه، ويتحرّون سبل غفران الذنوب، فكان من بعدهم يهتدي بهديهم.

تبين إذاً أنّ الاستغفار الذي جعله الله تعالى سبباً لرفع العذاب كان في حياة أسلافنا بكل ما فيه من حيوية، وكان يُتخصّن به.

والآن أرى أننا -نحن أبناء العالم الإسلامي- ابتعدنا تدريجياً عن الحياة الإسلامية منذ مطلع القرن السابع عشر حتى اليوم، بُعدنا وخضنا في الذنوب، ولطالما غدت الحياة الدنيوية همّنا، وجفونا القرآن والرسول وأوامرهما في حياتنا، وفوق هذا عجزنا أن ندرك أن كل ما فعلناه ذنب وإثم، وعجزنا عن الاستغفار؛ لهذا أرسل الله العُدل علينا وإبلاً من أصناف المصائب والابتلاءات.

والآن وفي ضوء هذا يتبين أن سبيل الخلاص من هذه المصائب هو: أن يسود الاستغفار حياتنا كلها، وأن نقش حبّ رسول الله ﷺ في قلوبنا، وأن نتبين أخطاءنا سريعاً، ونبحث عن حلّ ومخرج للسير والخلاص. أجل، هكذا ستنهض -إن شاء الله- هذه الأمة مادياً ومعنوياً، وتعود كرامةً أخرى إلى عصور المجد السابقة.

توحيد الأديان (!)

سؤال: انطلاقاً من القواسم المشتركة بين الأديان انتشر في الغرب: "أنَّ مصدرَ الأديانِ كلّها واحدٌ، فلا بد أن نوحِّدها في دينٍ واحدٍ؛ فكيف ينبغي أن يكون موقفنا من تلك الأفكار؟

الجواب: بادئ ذي بدء أريد أن أبين أن هذا الأمر ليس مشكلتنا نحن، بل مشكلة من يرون الأديان متعارضة؛ إذ إننا لا نرى اختلافاً بين اليهودية والنصرانية وبين الإسلام من حيث المصدر، بل العكس هو الصواب، فنحن نطلق عليهم اسم "أهل الكتاب" كما جاء في الكتاب والسنة، ونسعى إلى الانضباط بهذا المنهج؛ فيجوز الزواج بالنصرانية أما الملحدة فلا، ويجوز أكل ما يذبحه اليهودي أيضاً... وعلى هذا فإنَّ سيدنا عمر رضي الله عنه سنَّ بالمجوس سُنَّةَ أهل الكتاب؛ لأنَّ من أمَّهات عقائدهم ما هو قريبٌ من العقيدة الإسلامية، حتى إنَّ ثمة علماء أفاضل في يومنا هذا مثل "محمد حميد الله" يرون هذا الرأي في الديانة البراهمانية، وألحق بعضهم الفئةَ البوذية بهذا الحكم أيضاً.

إن كان ما قاله الباحثون صحيحاً؛ كان "بوذا" مصلحاً مثل "مارتين لوثر (Martin Luther)"، وعليه فقد تكون البوذية مذهباً في البراهمانية؛ ودلَّت دراساتهم أنَّ البوذية استلهمت الأخلاق

من البراهمانية، وجعلت منها نظامًا وطوّرتُها، ولم تستلهم الجوانب النظرية، وإذا كانت البوذية هكذا، فإن إطلاق لفظ "دين" على نظام بهذا المعنى محلّ نزاع؛ لأن الدين اصطلاحًا: "وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خيرٌ لهم بالذات؛" أمّا لغةً: فيمكن أن يُطلق على هذا النظام اسم "الدين" بمعنى السبيل أو النظام أو المذهب وإن لم يطلق عليه اصطلاحًا، ومع هذا فالمسألة قابلةٌ للجدل، ومن يدري فلعلّ للنظام البوذي أصلًا كسائر الديانات الإلهية، وقد يكون دينًا مختلفًا عن البراهمانية.

وللحديث عن هذا الموضوع أسرد إليكم أمرًا آخر استطرادًا: لو لم يحدثنا القرآن الكريم عن المسيحية الخالصة وعن عيسى عليه السلام، فكم كنّا سنعاني لفهمها بصورتها القائمة المحرّفة، كنا سنعاني كثيرًا، وكان سيستحيل علينا بيان مفهوم "التثليث" أو "الأقنيم الثلاثة" التي تُختصّر بنحو "واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد"، ولو لم يقدّم القرآن الكريم بيانًا جليًا عن كلّ من سادتنا موسى وهارون وسليمان وداود عليهم السلام لتعدّرت معرفة الماهية الحقيقية لهؤلاء الرسل الكرام كما بينتها عقيدتنا؛ فالمصادر اليهودية تزعم مثلًا أنّ بعضهم فيلسوف، وبعضهم -معاذ الله- سكير، وبعضهم زانٍ يزني بيناته -حاشا وكلا-... إذا لا يمكن أن يُطلق "دين" على مفهوم ينسب إلى الرسل والأنبياء أشياء لن يفعلها حتى أدنأ الناس وأحقرهم في العالم؛ ومن ثمّ يمكن القول: من الممكن أن يكون للبوذية أصل حق إلا أنّها تعرّضت لعملية التحريف والتبديل كالمسيحية واليهودية.

هل حدث هذا للبودية فحسب؟.. لا، فهذا "سقراط" مثلاً، لا تُعرَف أفكاره من كتاباته هو؛ لأن طلابه هم من نقلوا كلَّ شيء عنه، فكم تتلمذ "أفلاطون" على يد "سقراط"، وإلى أيِّ مدى فهم أستاذَه، ونقل إلينا ما أخذه عنه؟ كل هذه مجاهيل، وَلَدَى النظرِ إلى أفكارِهِ العامَّة نجدُ أنَّه كان مؤمناً بالله.

أجل، لطالما فقدتِ الأفكار صفاءها ونقاءها الأول بمرور الزمن، إِبَّانَ تداولها بين الأفراد والأجيال، لو أن الأمر وقف عند هذا الحد، لكن يحتمل أن مدلولها أيضاً أصابه التغيير عدا فقدانها صفاءها في التعبير؛ إن هذا لهو أحد أنماط التحريف حتى وإن لم يكن بسوء نية.

ومن هذه الأمور: أنه يتعذر توقع ما آل إليه النهج الروحي للمسيح عليه السلام بأكمله حينما اصطدم بوثنية "روما"، وبوسعكم مشاهدة تلك الحقيقة المرة واضحة حين تدخلون أية كنيسة؛ ومن ذلك أن مفهوم المسيحية المحرَّفة للألوهية يقول: الإله خاملٌ، وعليه أن يدخل في السيدة مريم ثم يخرج منها حتى يصير إلهًا فاعلاً ويتحول إلى المسيح، ويغدو المسيح هو الفاعل الحقيقي أصلاً، فهو يفعل كل ما بوسعه من أجل الإنسانية، بل يضحي بنفسه إذا لم يبقَ لديه ما يفعله، ويحين الوقت ليغدو أضحية(!).

ونعلم أن اليهود يقولون أشياء كتلك في عزير عليه السلام، وهذا يعني أن مثل تلك الحقائق التي تشبه الماس قد يؤدي الخطأ في تدوينها إلى خطأ في نقلها للأجيال القادمة، أمَّا الإسلام فنصوصُه مدوَّنة على أكمل وجه، والله تعالى قد تكفَّل بحفظ كتابه، ومع هذا

قد تتسلل مثل هذه النوعية من المعتقدات إلى بعض أتباعه، من ذلك نسبة الألوهية إلى سيدنا عليّ ﷺ؛ وهذا كأنه العقيدة المسيحية التي ألمحنا إليها آنفًا، فسيدنا عليّ على هذا هو الألوهية الفاعلة -حاشا لله-، وما إرسالُ سيدنا محمد ﷺ ونزولُ القرآن الكريم وغير ذلك سوى تهئية لسيدنا عليّ ﷺ، وهو ﷺ صاحب مقام الجمع، فاجتمع في كيانه كل شيء ومثله تمثيلًا، ثم تقاسم هذه القوة من ذريته الأئمة الاثنا عشر؛ وستجتمع تدريجيًا تامّة في الإمام المنتظر باعتباره خاتم الأولياء، وهو الذي سيكشف عن الثلاثمائة أو الأربعمئة آية الناقصة من القرآن، وستظهر الحقيقة، وتتجلى تجليًا كاملًا مرةً أخرى (!).

ويستحيل الجمع بين شيءٍ من هذه الادعاءات الباطلة وأصول الإسلام، وما أودى بهؤلاء في هذه الهوة سوى الجهل والتعصب الأعمى، ولولا اتفاق الأمة وإجماعها، وجهدها الممتد منذ أربعة عشر قرنًا لعانينا كثيرًا في فهم حقيقة سيدنا عليّ ﷺ.

إذًا، وإن تردى كل واحد من المسيحية واليهودية والبوذية والمجوسية والبراهمانية في هوة التحريف والتبديل إلا أن لها أصولًا مشتركة قد اتفقت عليها، منها: التوحيد والنبوة والحشر والعدل والعبودية ودفن الموتى والتستر... إلخ؛ فجُل الأديان تتفق على دفن الأموات عدا شواذَّ خرجوا على أعرافٍ امتدّت عصورًا طويلة، وأوصوا أن "أحرقوا جسدي"، وأتباع معظم الأديان يرتضون التستر ويعملون به، بل إن كثيرًا من نساء اليهود في بلدان العالم كنّ يغطين

رؤوسهن حتى وقت قريب؛ إذا ثمة مجموعة من القيم المشتركة تتفق عليها الأديان، ولا ريب أن كثيراً من أحكامها وقع فيه تحريف وتغيير وإن لم يحدث مثل هذا في الإسلام.

وعلى هذا يتعدّر تمييز ما جاء من عند الله عن غيره أصولاً وفروعاً، وقد أنزل الله ﷻ الأصول التي رضيها على كل نبيّ أرسله خلفاً لغيره من الأنبياء، ونسخ ما أراد نسخه من الفروع، وقد أرسل سيدنا محمداً ﷺ خاتماً للأنبياء، فحمل مهمة التصحيح والتجديد والتأسيس من خلال الكتاب والسنة.

أجل، إنه مصحح لأنه صحح ما أصابه التحريف في الشرائع السابقة، وهو مجدّد غير كثيرًا من الأحكام لتناسب تغير الأحوال والأزمان، وهو مؤسس أسس شرعاً جله جديد من الألف إلى الياء؛ إذا لا حاجة ألبتة للسعي إلى توحيد الأديان من جديد؛ إن الإسلام -الدين الذي شرعه الله- هو اسم لهذا الأمر الذي يفكرون في تحقيقه، وفي هذه الآيات بيان لهذه الحقيقة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: ٣/٥)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٨٥/٣)، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (سورة آل عمران: ١٩/٣).

وفي قاعدة "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ"، مؤشراً آخر يشير إلى أنه لا حاجة لأمر كهذا.

وهذا الضرب من الفكر والدراسات لا يُحظر إن كان باسم الثقافة
 لا باسم الدين؛ لأن الدين شيءٌ، والثقافة شيءٌ آخر، ولا يمكن أن
 نعدّ الدين والثقافة شيئاً واحداً مهما تضمّنت الثقافة أموراً تصدر من
 الدين بل تتغذّى منه، فهذه الأفكار وإن أفادت في الدراسات العلمية
 والثقافية والحضارية إلا أنها دينياً تشبه في التباسها لغة الطقوس
 الهندية القديمة "السنسكريتية"، فهي عبثٌ محضٌ.

وآخر ما هنا أن هذه الأفكار طُرقت في عصور خاليةٍ ودراسات
 سعت لتوحيد الأديان، وباءت جميعها بالفشل في أهدافها، ولعل
 "أكبر شاه" ذو نية حسنة، لكنه إنسان خضع لتأثير الهندوس وقال:
 "لنأخذ من كلِّ دينٍ شيئاً، ونجمع بينها"، فنجم عن فعله هذا الزجّ
 بقامةٍ عليا مثل الإمام الرباني في السجن.

وظهر أناسٌ في الغرب (لعل غارودي منهم) في الآونة الراهنة
 ليدعوا إلى الواجهة نفسها، وهؤلاء أفنوا جُلَّ حياتهم حُماةً لأنظمة
 مضادّة للإسلام ثم اعتنقوا الإسلام في الظاهر؛ يفعلون ما يفعلون
 ظناً أنه الصواب إلا أنه خطأ محض، إنهم لم يطبقوا الإسلام بعدُ
 تطبيقاً يجعله جزءاً من أنفسهم أو من فطرتهم لا ينفصم عنها، ولم
 يطهروا جَوَانِبِهِمْ من نُفَايَاتِ الكفر، ويلقوها عنهم، فهم كمن يُشَمِّر
 لُججَ عن ساقه ويَعْمُرُهُ الموج في الساحلِ.

أجل، إن الإنسان ميّال للإفراط والتفريط والانحراف بطبعه،
 فهذا "ابن تيمية" وإن كان شخصية إسلامية عالمية إلا أنّ له آراءً شاذةً
 وفيها إفراط، وإن من جعله متشدّداً في منهجه هم من كانوا يشعلون

الشموع في المقابر، ويغالون في زيارة الأضرحة يومئذ؛ ولهذا ينبغي أن يكون الناس حذرين يقظين دائماً، وأن يعنوا عناية عظمى بتجنب هذا الخلق الضارّ الكامن في طبعهم، وألا يخضعوا لتأثير البيئة في هذا الشأن، وأن يسعوا دائماً لتقييم الحوادث في ضوء موازين القرآن والسنة، وليعلم أبداً أن الميل للإفراط والتفريط ابتلاءً ملازمٌ لنا.

لذا ينبغي أن يكبح الإنسان جماح إرادته، ويبحث عن الطرق المؤدية للكمال الإنساني في الدين الذي ارتضاه الله بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٣/٥)، وأن يسلك في تلك الرحلة صراطاً سلكه النبيون والأصفياء والأولياء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كي يبلغ المنزل المقصود، وإلا قد يخسر في وقت هو أدعى للكسب.